عصور الازدهار
وعصور الانهيار

obeikandl.com

obeikandl.com

ظل العرب زماناً طويلاً وهم أنضر أهل الدنيا حضارة ، وأذكاهم فكراً ، وأشرفهم سيرة ، وأنقاهم سريرة .

وامتدت بهم العصور وهم منفردون بهذا السَّبْق البعيد ، لا يكاد يدانيهم أحد فى سعة الخطو ، واستقامة النهج .

ولولا أن العرب شُغِلَ بعضهم ببعض فى فترات متراخية ما ردهم عن امتلاك المشارق والمغارب أحد ، فإن تفوقهم المادى والأدبى ـ الذى صحب اعتناقهم للإسلام ـ أعجز غيرهم عن بلوغ المستوى الذى أحرزوه .

ولقد وقف العرب دون عائق ظاهر أو خفى فلم يتابعوا مسيرهم المظفر فى العصر الأول ، ولا أنفذوا الرسل بدعوتهم العظيمة إلى الآفاق البعيدة كما فعل نبيهم الكريم .

وكانوا يستطيعون ـ لو أرادوا ـ أن يجتازوا الصين إلى اليابان ، وأن ينتقلوا من فرنسا إلى شرق أوربا وشمالها .

أتظن وقفتهم هذه كانت حذر قوى ذات خطر فى تلك البقاع ؟

كلا ، فإن الشعوب الأوربية كانت من هوان الشأن بحيث لا تستطيع أن ترد فاتحاً ، وهى وغيرها من الخلائق كانت تهيم فى بيداء من الخرافات ليس لها من آخر .

وليت العرب وجدوا عدواً مكافئاً ينافسهم وينافسونه ، إذن لزاح عنهم الغرور العلمى الذى استولى عليهم وأغراهم بالقعود والدعة .

كم يستفيد المرء من أعدائه ؟

إن الرجل فى ميدان الكفاح يتفقَّد صفوفه ، ويتحرى أسباب سلامته ، ويَوْجَل أن يؤخذ عن غِرَّة .

أما إذا خلا الجو له فقلما يتحرك إلى عمل تنعقد له العزيمة ، وتؤخذ له الأهبة ، ولعله ينام تلبية لقول القائل :

وإذَا العنايَة لاحظتْكَ عُيونها نَمْ فالمخاوفُ كُلُّهـنَّ أمـانُ

والحق أن المرء يشعر بغُصَّة عندما يقارن بين القمة التى اعتليناها دهراً ، والوهدة التى انحدرنا إليها بعد .

إن الهمل الذين عاشوا فى أوربا ألف سنة لا يصلحون لشىء بالنسبة لنا ، ساروا اليوم سادة فى دنيا تضنُّ علينا بالنصفة .

« **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ** »[1].

ظلت حضارة العرب شمس هذا العالم مئات السنين ، وكان الإسلام خلالها مبعث الضوء والدفء والنماء والحركة .

ورسالة الإسلام بطبيعتها تخلق أجواء البحث والنظر ، وأجواء اليقظة والدأب .

وذلك لأن الإسلام يعتمد فى أصوله على منابع جيَّاشة بالإلهام والبعث .

قرآن يستثير الألباب والأفئدة ، ويتضمن الكلم الفواصل فى كل ما شغل الناس أو يشغلهم من قضايا الفرد والمجتمع والدولة .

وإمام هُدى شقَّ فى الحياة العامة طريقاً واضحة المعالم ، يعجز الفلاسفة القدامى والمحدثون عن مثلها .

أجل ، فإن سنة محمد طراز من الحكمة العلمية والعملية لا نظير له فى الأولين والآخرين ..

ومن هذا الكتاب الكريم ، وتلك السنة المطهرة ، تتكون الثقافة الذاتية للإسلام ـ ونعنى بالثقافة الذاتية للإسلام ألوان المعرفة والتربية التى كوَّنت الأمة الإسلامية وصاغتها فى قالبها المعروف ـ .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٠

إن هناك علوماً لا وطن لها ولا جنس كعلوم الأحياء والرياضة .

ودور العروبة فى هذا القطاع الكونى العام يأتى حديثه بَعْد .

لكن الذى نومىء إليه الآن ما أسميناه الثقافة الذاتية .

الثقافة التى تضبط اتجاه الإنسان فى الحياة ، وترسم له الهدف بدقة ، وتشد زناد مواهبه ثم تطلقه فيمضى كأنه قذيفة حية لا تميل ولا تزيغ ..

هذه الثقافة الذاتية من الوفرة والخصوبة فى تعاليم الإسلام بحيث تصنع الأمم صناعة كاملة ، كأنها « جهاز » تام الأدوات لا يعجز عن أداء وظيفته فى شىء .

وهذه الثقافة الذاتية إنما تنهض على ركائزها الأولى من الكتاب والسنة ومن علوم الكتاب والسنة ، ومن إيلاف الخاصة والعامة لإيحاءات وغايات الكتاب والسنة .

ومن هنا كان جهد الغزو الأجنبى للشرق الإسلامى أن يميت هذا الجانب من الثقافة ، وأن يصوب إليه سهامه بإصرار حتى يصرفه عن عمله العتيد .

وهو عندما نجح فى ذلك خلق أجيالاً قد تكون بارعة فى الكيمياء أو الهندسة ، ولكنها تحيا بغير باعث أو هدف ، بغير روح أو أمل ، كرجل يسير فى الطريق دون غاية تقوده فهو يتفرج على كل زياط ، ويتبع كل ضجة .

كذلك سواد المتعلمين فى بلادنا ، يرمقون الحياة العامة بقلوب جعلها الاحتلال فارغة ، فهم كلما برق أمام أعينهم مبدأ مستورد من الخارج تبعوه دون تمييز ودون أكتراث .

وربما تبعوه تزجية للفراغ وإضاعة للوقت .

ونحن ننبه إلى ضرورة الحفاظ على الثقافة الذاتية للإسلام ، ونهيب بأولى الحِجَا أن يتوجسوا من عُقْبى الفراغ النفسى والفكرى الموجود الآن بين شتى الطوائف .

إن ضياع هذه الثقافة الذاتية معناه ضياع أمتنا كلها ..

ومن السهل أن ننظر إلى التاريخ الثقافى لأمتنا فنجد إشتغال المسلمين بعلوم الكتاب والسنة قد استنفد أوقاتهم وجهودهم ، وكان الأسلاف يورثون الأخلاف هذه المعانى لأنهم يورثونهم فيها أسرار الحياة ، بواعث النشاط ، وضمانات الرشاد !!

أثر العقيدة والشريعة فى المجتمع :

والقرآن ـ وهو أساس الإسلام ـ ليس مزامير وعظ ، أو مناجاة رهبان متبتلين ، فدائرته أرحب أقطازاً من ذلك .

قد يستحلى الخاشعون تلاوته فى محاريب العبادة ، وتنحدر دموعهم لما احتوى من وعد ووعيد .

لكن هذا الكتاب يصل الفرد بالحياة العامة والمجتمع المائج صلة لا يمكن إضعافها .

ومفهوم الإيمان منه صلاح وإصلاح ، ورشاد وإرشاد ، وعقيدة تتعدى نفس الفرد إلى ما حوله من أشخاص وأشياء .

ولا غرو فالإيمان الفردى فى البيئة الشاكة سريع العطب ، والمرء العابد فى دولة ملحدة سوف يموت يوماً وتموت معه عبادته ويبقى الإلحاد الحاكم .

من أجل ذلك رفض الإسلام رفضاً باتاً حياة العزلة ولو كان الإيمان فيها جذوة نار .

فإن هذه الجذوة مع انتشار الفساد كمدفأة وسط عاصفة باردة التيارات هَتُون الأمطار لا تلبث أن تخمد .

ومن أحسن ما يصور طبيعة الإسلام مروى عن أحد الصالحين أحب أن يجاور الحرمين وأن يتبتل إلى الله ، فكتب له صديق حازم من المجاهدين :

يَا عابدَ الحرميْن لو أبصرْتناَ ... لَعلِمْتَ أنكَ بالعبادة تلعبُ

مَنْ كانَ يخضِبُ خَدَّهُ بدموعهِ ... فنُحُورنا بدمائِنَا تتخضَّبُ !!

الإسلام شديد الإعلان عن طبيعته ، يغرس عقائده غَرْساً فى أرجاء المجتمع .

أسمعت هذا الأذان المتكرر !

إنه صيحات واعية هائلة تجذب قوافل البِشْر إلى الحق كلما غلبتهم الغفلة ، وجمحت بهم غرائز السوء .

فى نفس أى مؤمن شعور أن الله أكبر ، لكن هذا الشعور يجب أن يتحول جؤاراً بعيد الدَّوىِّ يزعج الشيطان ، ويعلى شعار الرحمن .

ومن خواص العقيدة عندنا أن بناءها على الحق لا على الخرافة ، وعلى الدليل لا على التظنن .

« **أم اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانكمُ هذَا ذِكْرُ مَنْ مَعىَ وذِكْرُ مَنْ قبْلِي** »[1] .

ورفض أى دعوى لا تساندها الحجة المقنعة للعقل أساس عظيم فى وزن الأمور ، ونفى التُّرهات .

والعقل فى نظر الإسلام مصفاة لما يعرض على الإنسان من مبادىء وقضايا ، مصفاة لا تسمح للأقذار والشوائب أن تلوث الفطرة ، أو تضلل السلوك .

وعندما تمر الحقائق النقية من هذه المصفاة تستقر فى حنايا الصدر لتجعل صاحبها تقياً مخلصاً لله رب العالمين .

والتقوى كلمة أبلاها سوء الاستعمال وطول الابتذال .

غير أننا نسارع إلى التوكيد بأن لبابها الجليل هو سر الفلاح لأية جماعة .

وهيهات هيهات أن يصلح مجتمع نضب فيه معين التقوى ، وارتد أبناؤه .

إما دواب تقودها طباعها ، أو شياطين بارعة الفكر عديمة الخير .

التقوى استصحاب المرء لرقابة الله وهو يباشر أى عمل ، فهو يبلغ به درجة الكمال دون رغبة أو رهبة ، وهو يُجوِّده تجويداً ـ ولو كان خالياً ـ كأن ألف عين ترمقه .

الإيمان هو الذى يسرج مصباح الضمير ، ويجعل الناس يتحابون بروح الله ،

---

(١)سورة الأنبياء آية : ٢٤

ويتعاونون ببواعث الحق والخير ، ويؤدون الواجبات المنوطة بأعناقهم دون تململ .

ماذا كسب المجتمع لما وَهَى سلطان العقيدة ؟ إنه خسر استقراره وسعادته ، بل خسر نفسه .

وإنى أقارن بين « فقهاء » الكتاتيب الذين كانوا يأكلون فُتات الصدقات ، ومدرسى المرحلة الأولى فى التعليم الحاضر ـ وهم أثرى وأرقى ـ فأجد إيمان الأولين جعل نتاجهم كثيراً طيباً ، وأما الآخرون فعلى كثرة النفقة ، وتعدد الرؤساء ، وتعهد البرامج ، وتنظيم الفرق ، لم يثمروا شيئاً طائلاً .

إنه لا العمال ، ولا الموظفون ، ولا الحكام ، ولا سائر الطوائف يستطيعون الإسهام فى إقامة مجتمع ناجح إلا على ضياء اليقين الراسخ والتقوى الغالبة والعبادة الحية ، وكل ما تجمع باقة الإيمان الصحيح من فضائل وخيرات .

* * *

واستقرار العقيدة فى النفس والجماعة يلد أغلب الاتجاهات النفسية والأخلاق العملية ، لكن البشر لا يستغنون مع هذا عن سلطات القانون .

وقد يزَعُ الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن خصوصاً عند اعتلال القلوب ، وغيض الوفاء .

والإسلام تضمَّن مجموعة متكاملة من التشريعات المقرة للحق ، الكافلة للطمأنينة ، والحارسة للإنصاف والعدالة .

وحسبها أنها من السماء لا من الأرض .

ومن صنع الله الخبير البصير ، لا من صنع البشر الذين طالما ضلوا على أنفسهم ووكلتهم الأقدار إلى تدبيرهم ففسدوا وأفسدوا .

والمهم فى القانون ـ بعد سداده وصدقه ـ إحسان تطبيقه ، وتعاون الشعب والحكومة على إنفاذه .

وهذا لا يتم إلا إذا كان الإيمان أساس الشريعة القائمة وأساس رضا الأُمة بها ، وتسليمها لها .

والسوالف الأولى تتضمن العجائب فى هذا الميدان .

إن الرغبة فى إنفاذ القانون غلبت غريزة الأمومة ، وغريزة الأمومة من أقوى وأزكى الغرائز الانسانية إن لم تكن أقواها وأزهاها .

ومع ذلك فإن امرأة كالغامدية ، ألمت بذنب ، ورأت أن تطهر نفسها من آثاره ، فذهبت إلى رسول الله ومعها رضيعها ، ثمرة خطئها ، وطلبت أن يقام عليها الحَدُّ .

فلما أُرجئت لحاجة ولدها إليها عادت بعد فترة ـ وقد كبر الطفل ـ وفى يده لقمة يأكل منها ، وطلبت أن يقام عليها الحَدُّ !!

مثل هذه المرأة يشترى الحياة بأى ثمن إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجل ولده .

أما هى فإن إيمانها بأن القانون القائم هو الذى يطهرها من جريرتها جعلها تجود بنفسها ، وتتقدم طوعاً لا كَرْهاً .

إن القانون إذا كان جزءاً من الدين كان احترامه وتطبيقه ديناً .

ومن ثَمَّ كان من العبث بقاء القوانين الوضعية إلى يومنا هذا مع أنها من مخلفات الاستعمار الصليبى ، ومن أبرز مظاهر التحدى لله ورسوله .

وقد استبحرت بحوث الفقه والتشريع فى حضارتنا استبحاراً لا يُؤْثر لحضارة أخرى ، وكتب الأئمة والعلماء فى ذلك أسفاراً ضخمة ، ووصلوا إلى مبادىء قانونية ، وقواعد بالغة الدقة .

ويمتاز المسلمون بأن عامتهم وخاصتهم يتدارسون ألوان التشريع فى المساجد والمدارس على أنها دين واحد . والعبادات والمعاملات فيه سواء .

فرجل الشارع فى المدينة أو الفلاح فى القرية يقصد إلى المسجد ليسمع كلاماً

فى أحكام الصيام ، وكلاماً فى أحكام البيوع والإيجارات ، على أن هذه وتلك تعاليم الإسلام التى لا بُدَّ من فقهها والعمل بها .

إن الإسلام جعل الأمة كلها أمة نَظرٍ قانونى لا أمة خيال وتوهم .

والأوربيون يذكرون أسلافهم الرومان على أنهم رجالات القانون وجهابذته ، ولعمرى إن الرومان ما بلغوا فى هذا معشار العرب .

ولكن القوم يتعصبون لأسلافهم ويحتفلون بالتافه من تراثهم .

أما نحن فالتركة العقلية الرائعة لأئمتنا العظام رمى « هولاكو » بعضاً منها فى الفرات ليصنع جسراً تعبر عليه جيوشه .

ورمى الصليبيون بعضاً ثانياً فى غرب البحر المتوسط ، ونقل عقلاؤهم ألوف الكتب إلى عواصمهم ، وكنزنا نحن بعضاً فى دور الكتب فيه المخطوط وغير المخطوط .. وحسب !!

وما تتداوله الأيدى فى ميدان الدراسة شىء محدود ، ولعله ليس أفضل الموجود .

. ويمتاز التشريع الإسلامى بطابعه الدينى الجليل .

إنه يرعى المصلحة كأدق القوانين المدنية ، ثم هو إلى جانب ذلك وثيق العُرَى ببواعث الإيمان وأمثلته العالية .

إنه فى ميدان الحياة العملية قسيم للعقيدة وما تلده العقيدة من أخلاق وتقاليد . كذلك القانون عندنا ، إنه يسير بين خطين ثابتين من رعاية الله وتحرى رضاه ، كما ينطلق النهر بين شاطئيه لا يطغى ولا يزيغ .

ويطول بنا المقام لو ضربنا الأمثلة ، وعرضنا نماذج من اجتهاد الفقهاء وفق نصوص الدين وقواعده العامة .

ويكفى أن نثبت هنا رسالة كتبها الخليفة الراشد عمر لأبى موسى الأشعرى إذ ولاه القضاء .

وهى رسالة جمعت آداباً كريمة ، ودَلَّتْ على منزع الفقه الإسلامى فى إثبات الحقوق ، وإرساء الحدود ، وارضاء الله وإنصاف عباده .

قال :

« بسم اللهِ الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك .

أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تَكَلُّم بحقٍّ لا نفاذ له .

آسِ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على مَنْ ادعى واليمين على مَنْ أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة .

ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقِس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينه أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجْلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حَدٍّ أو مُجرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والإيمان .

وإياك والقلق والضجر [1]، والتأذِّى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن

---

(١) القلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر .

الحق فى مواطن الحق يُعظِم الله به الأجر ، ويحسن به الذُّخْر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام .

* * *

بدأت الثقافة الذاتية للإسلام نقية لا كدر فيها ، وظلت أمداً طويلاً وهى تخط للمسلمين طريقهم ، وتحدد وجهتهم وتمدهم بالوقود الذى يدفع قافلتهم إلى الأمام .

وقد شابها فى الأعصار الأولى شيء من الغبار الذى يكسو الوجوه الكادحة ولكنه لا يغير ملامحها ولا تعسر إزالته .

وهذا القدر من الغبار الطفيف دافعه العلماء ، ومنعوا أذاه عن الأفئدة والأفكار .

إلا أن هذه الثقافة فى القرون المتأخرة داخلتها أغيار شتى ، وانتشرت تحت عنوانها تُرهات وظنون واهية الصلة بالإسلام أو غريبة عنه .

ولولا أن أساس الإسلام محفوظ بعناية السماء لانقطعت حبال المسلمين بدينهم وشردوا عنه بعيداً :

إن هذه الثقافة تبدو صافية كماء المزْن كلما اقتربت من ينابيعها الأولى فى الكتاب والسنة.

وتعتكر وتربدُّ كلما اختلطت بأهواء ذوى الأهواء ، أو بما أدخلته الغفلة علينا من إسرائيليات ونصرانيات وإغريقيات !

والفقهاء فى الكتاب والسنة جازمون بأن تركة العلوم الشرعية التى آلت إلينا مثقلة بانحرافات واضطرابات شتى ، وأنها بحاجة ماسة إلى غربلة شاملة تنقيها من الدخيل الضار ــ وما أكثره ــ وتردها إلى أوضاعها الأصيلة كيما تخدم الحق ، وتنفع الناس ..

فى علم العقيدة ـ الموسوم بعلم الكلام ـ مباحث سخيفة خلقها الفراغ ، والسماح لفلسفة يونان أن تقتحم بأوضارها محاريب الفكر الإسلامى .

ويجب بَتْر هذه الإضافات ، ورجع العلم المظلوم إلى مادته الأولى ، يصور جوهر الإيمان ، وينير القلوب بكهربائه .

ونستطيع القول بأن أكثر الكتب المؤلفة فى هذا العلم لا تصلح لا لعصرها ، ولا لعصرنا .

وفى علم الفقه متون وشروح وحواشٍ أغلبها من إنتاج المتأخرين ، وهى رديئة العرض ، سقيمة الأسلوب .

وحقائق العبادات والمعاملات مبعثرة فيها بعثرة مزعجة ، فضلاً عن المنحى المذهبى الذى جعل كل طائفة منها تمثل جانباً من الفكر القانونى ، لا يغنى عن الجوانب الأخرى .

وفى كتب السيرة والتاريخ حشد هائل من المرويات التى لا تثبت على التمحيص ، ومع أن جهابذة النقاد زيَّفوا كثيراً من تلك النقول المريبة ، فإنها بقيت فى مكانها دون أن تُحذف وتُوارى فى الثرى .

وقد هاج المسلمون فى الهند على كتاب تناول الرسول بأسلوب لا يليق ، وعندما قرأت الفقرات التى أغضبت المسلمين هناك ، وجدت جرثومتها من بعض كتب السيرة التى لا تبالى بإثبات الهزيل والعليل ، بل الباطل المرفوض من الأخبار .

وفى كتب التفسير ـ خصوصاً ما تتداوله العامة كتفسير الخازن ـ هراء كثير ، وهذا الكتاب لا يصلح للقراءة إلا بعد حذف صفحات منه .

ومنهج التفسير نفسه ينبغى أن يُراجع .

وهناك كتب السنة التى لا بُدَّ من إعادة تبويبها ، وتهذيب سياقاتها حتى يتسنى للجمهور أن يستفيد من حكم النبوة المسجلة فيها.

إن الثقافة الإسلامية الآن ، وبعد القرون الميتة التى اجتزناها أخيراً يجب أن يُعادَ النظر فيها طولاً وعَرْضاً ، لأنها ـ للأسف ـ لا تيسر حقائق الإسلام ، كما أتت من عند الله .

وليست هناك قداسة لإنتاج أحد من الخلق ، إنما القداسة للوحى الأعلى وحده .

وفى مقدورنا على ضوء كتاب ربنا وسنة نبينا أن نربط الأجيال الحديثة بالإسلام عن طريق كتب تستقى من النبع الأول ، وتتحامى [1] تخليط المخلِّطين ، وتنتفع بجهود ذوى البصائر من الأولين والمحدثين .

ولو أن إدارات الثقافة فى الجامع الأزهر وسائر الهيئات المشتغلة بخدمة الإسلام توفرت على هذا الصنع لأحسنت كل الإحسان !

وقد بذلت جهداً قليلاً فى هذا المجال .

ولا يزال الجهد الأكبر ينتظر أهله .

ثم إن الشعور يخامر الكثيرين بضرورة إصلاح الثقافة الإسلامية ودعم الجامع الأزهر الذى يقوم على رعايتها .

وفى ذلك يقول الأستاذ الزيات :

« إن من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه أن امتزجت به كل نحلة ، وسَرَتْ إليه كل علة ، وتراءت فيه كل حالة .

فكل امرىء واجد فيه ما يلائم استعداده ، ويناسب فهمه .

فالثورة الدينية بالمعنى الذى ذكرته ، هى تحرير العقل من الاقتداء العاجز ، والمتابعة المسلِّمة ، وتطهير السنة من الأحاديث المكذوبة ، والأقوال المشوبة ، وتطوير الفقه فى حدود ما أنزل الله ، وبلّغ الرسول ، ليطابق مقتضيات العصر ،

---

(١) تتحامى : تتجنب .

ويجابه مشكلات الحضارة ، ثم عرض هذا الإسلام الصادق الصافى على الناس فى معرض واضح ، ومظهر جاذب ، ومنهج قويم .

ذلك ما يجب أن يدخل فى تخطيط الجمهورية للسنين العشر القادمة .

فإن النص فى الدستور على أن الإسلام دين الدولة لا يحقق معناه إلا إذا كان للدين الأثر الفعال فى التربية والتعليم والتشريع والسلوك .

والأزهر بفضل ما مكَّن الله له فى التاريخ ، وهَيَّأ له من الموضع ، وأتاح له من الكفاية ، أقدر وُرَّاث النبوة على تبليغ الرسالة العظمى ، وتوجيه الأمة الكبرى إذا تسنى له أن يؤدى رسالته على المرسوم الذى رسمته الثورة ، وبالمفهوم الذى أعلنه المؤتمر العام للاتحاد القومى ، إذ قال :

« يعلن المؤتمر ـ إيماناً بالدور الخطير الذى يؤديه الأزهر الشريف فى معركتنا المقدسة دفاعاً عن عروبتنا ، وقيمنا الروحية ـ تمسكه بضرورة العمل على دعم هذا المعهد الإسلامى الجليل ، حتى يستمر منارة ترسل أشعتها العلمية والروحية إلى أرجاء العالم .

وتمكيناً له من مسايرة تطورنا المعاصر .

يوصى المؤتمر بضرورة العمل على أن تُؤمَّن للأزهر الوسائل ليكون أداة صالحة لخدمة أهدافنا الروحية والقومية من تحرير الوطن العربى ، وتحقيق وحدته الشاملة فى إطار مفهومات القومية الحقيقية » .

أما رسالة الأزهر فجماعها حفظ التراث الإسلامى ، وتنقيته من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة ، والبدع الضارة ، ثم نشره على العالم عن طريق التعليم والتأليف والترجمة والدعوة .

وسبيله إلى ذلك ـ فيما أرى ـ أن يُمكَّن من جمع هذا التراث المتفرق المشوش فى ثلاثة أسفار :

سِفْر فى التفسير : تُشرح فيه الآيات الكريمة على ضوء الرواية ، والعلم الثابت ، ويجمع بين ما صَحَّ من أقوال السلف ، وما صح من آراء الخلف .

وسِفر فى الحديث : يُدوَّن به ما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ، ويستعان على شرحه بعلوم التاريخ والاجتماع ، والأخلاق ، والفلسفة .

وسفر فى الفقه : يشمل ما تواتر من الأحكام ، وصَحَّ من المذاهب ، وسَلِم من الآراء ، ثم يوضع متنه مواد ، كالقانون ويشرح شرحاً فنياً يستوعب أصوله ويستقصى فروعه فى غير حَشْوٍ ولا استطراد ، ولا تعمية .

هذه الأسفار الثلاثة ستكون مادة الدراسة ، ومرجع القضاء ، ومصدر الفتوى ، ثم يجرد منها مختصرات تُدرَسُ فى المدارس ، وتنشر فى الجمهورية ، وتترجم مع المطولات إلى أكثر لغات الشرق ، وأشهر لغات الغرب ، ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام ، أو يريد أن يعرفه .

أما ماعدا ذلك ، فما كان صحيحاً بقى فى المكتبات ليرجع إليه المتخصص والمؤرخ ، وما كان زائفاً صُنع به ما صنع عثمان فى كل مصحف غير مصحفه ، فإن الإبقاء على الزيف من الأحاديث والآراء لَبْس للحق بالباطل ، وطمس للنور بالظلام ، وتعمية للطريق على السالك .

أذكر أن أحد الأساتذة الكبار عليه رحمة الله ، قدَّم رسالة بالفرنسية إلى « السربون » عن حال المرأة فى الإسلام ، نال فيها من خلق الرسول وشرعه وسلوكه ، فلما أنكر عليه مَنْ أنكر استدل على كل ما ادعى بأحاديث مروية فى « طبقات ابن سعد » ، وفى « الشفاء » للقاضى عياض .

ولما ردوا حجته بأن هذه أحاديث موضوعة ، قال :

« وما يدرينى أنها موضوعة ، والكتب التى نقلتُ عنها معتمدة متداولة ؟» .

وأشباه هذا الأستاذ ممن ضللتهم النقول ، وخدعتهم الكتب يخرجون على الناس كل حين بالرأى المجازف ، أو الكتاب المخالف ، ثم لا ينبههم نُقَّاد الحديث إلى أن ما نقلوه منحول ، أو مدخول إلا بعد أن يكون الرأى قد سار ، والكتاب قد نُشِر .

فلو أن هذه الأحاديث المفتراة لم تكن منشورة على العيون يقرأها مَنْ لا يميز بين

ما اتصل منها ، وما انقطع لما طارت الشُّبه والظنون حول العقيدة .

فالثورة الرابعة غرض من أغراض الثورة ، وضرورة من ضرورات الإصلاح ، وطبيعة من طبائع الدين ، ووجيبة من وجائب الأزهر ، فإذا شبت مع الثورات الأخرى فكسحت الغُثَاء ، ونفت الخبث ، وطهرت شريعة الله من سموم البدع ، ونقّتها من شوائب الفِرَق والشِّيع ، فوردها الناس صافية كفطرة الله ، كانت جديرة بأن تبنى للعرب المجتمع المثالى الذى يسير على صراط الله بقيادة الحق. ورعاية العلم ، ورقابة الضمير ، فلا تجد فيه ، متى اكتمل بناؤه ، المخازى التى تُقترف فى الدواوين ، ولا المآسى التى تمثل فى البيوت . ولا المهازل التى تشاهد فى الطرق . ولا المساوىء التى تحدث فى التعامل .

ويومئذ يغتبط المصلحون بفتح الثورة . ويعتز المواطنون بعزِّ الوطن . ويفرح المؤمنون بنصر الله .

* * *

فضل العرب على علوم الحياة :

سألنى سائل :

أكُتِبَ على الشرق التأخر والخمول . وأن يحيا أبداً كسير النفس . ذليل الجانب. وكُتِبَ للغرب التفوق والظهور . وأنْ يحيا أبداً عزيز الجانب أبدَ النفس ؟

قلت : من كتب هذا ؟..

إن الدروس التى تلقيتموها . والدعايات التى سحرتكم هى التى روَّجتْ لهذه الأكذوبة بينكم ـ فظننتم أن الأحوال المعاصرة هى امتداد ما مضى من تاريخ الأمم وسوف تبقى ضربة لازب . كأنها تقسيمات طبيعية لا فِكَاك منها .

وكأن تقدُّم الغرب . وتأخر الشرق أشبه بما انقسم إليه سطح الكرة الأرضية . فهذه مناطق حارة أبداً . وهذه مناطق باردة أبداً ..

ومعنى هذا أننا نحن المسلمين فى الشرق كنا وسنبقى متخلفين . وأن هؤلاء الصليبيين فى الغرب كانوا ومازلوا متقدمين .

إن هذه يا صاحبى أكذوبة بالغة الحقارة .

والحق الذى يعيه التاريخ أن أهل الغرب حديثو عهد بهذه النهضة . فهى بينهم ظاهرة طرأتْ على أحوالهم . لم يألفوها من قبل .

وإن كبوة الحظوظ فى ديارنا أمر موقوت . ما كان من خلائقنا . ولا تشبُّثَ له بأرضنا .

ودعوى الغرب أنه ورث الحضارة كابراً عن كابر دعوى فيها من الإفك بقدر ما فيها من الجحود .

إنه عندما ينكر أننا مُعلِّموه . وأنه عنَّا تلقى أصول نهضته العلمية الحاضرة يرتكب آثاماً لا تُستغرب منه . فكم للقوم من آثام ؟

إذا قالت اليابان ــ ونهضتنا الحاضرة بنت ستين سنة ــ إنها ورثت هذه الحضارة من جزائرها . لا من جيرانها الأقربين أو الأبعدين . فهى تأفك لأنها لم تتلق عن الأجداد شيئاً . وإنما تعلمت من غيرها ما تقدمت به فى يومها هذا .. وليس لليابانيين القدماء مجد يتغنى به . ولا تاريخ يشرف أصحابه .

وإذا قالت أوروبا إن عظمتها الحاضرة أثر أسلافها الصالحين . فهى تُوغِل فى الزور . فتاريخ أوربا صفر . وتاريخها الوسيط هو الخرافة والبلادة . والتعصب والضغينة .

والواقع أن عصر النهضة الذى اهتزت به أوربا لم يخلص لها إلا بعد أن انسلخت من ماضيها ، كما ينسلخ الثعبان من إهابه [1] .

قد تقول :

وتراث يونان الفلسفى ؟ كيف نسيته ؟

والجواب ما نسيناه ، ولكن من العبث أن ننسب اليه النهوض الغربى الحاضر .

---

(١) إهابه : جلده .

إن منطق أرسطو ـ وهو أدقّ أفكار اليونان ـ ما كان ولا يكون أساساً للمدنية الحديثة .

إن المدنية الحديثة نهضت على منطق الملاحظة والتجربة والاستقراء .

وصَرْحها العلمى قام على هذه الدعائم . وهى دعائم لم تُعرف إلا من منطق القرآن الكريم ، ومن إشراقات الحضارة العربية التى انبعثت فيه .

ولولا القرآن ، وما بعثه من حياة فكرية نضرت العقل الإنسانى ، ومهدت أمامه السبل ما عرف عصر النهضة ، ولا نضحت على أوربا فيوض اليقظة الإسلامية التى غيَّرت حياتها ، وبددت سُبَاتها[1].

* * *

إن أوربا التى تستقبل اليوم العام الحادى والستين بعد تسعة عشر قرناً لميلاد السيد المسيح ، سلخت من هذا العمر المديد ستة عشر قرناً وأهلها ـ على حَدِّ ما وصف القرآن بعض الناس .

« لا يَكادُونَ يَفقَهُون قَوْلاً »[2]

على حين كان أسلافنا مبرزين فى علوم الدين والدنيا ، وفى شئون الحياة العامة على الإجمال .

وقد اقتبس الأوربيون من حياتنا وعلومنا وفنوننا ما دعَّمُوا به كيانهم ولموا به شعثهم .

ونحن هنا إنما نذكر شيئاً يسيراً يكشف عن هذه الحقيقة .

* * *

إن الإسلام غيَّر أسلوب التفكير الإنسانى ، ونقله من مجرى ينتهى إلى الظنون والأوهام إلى مجرى آخر ينتهى إلى الحق واليقين .

---

(١) السُّبات : النوم .

(٢) سورة الكهف آية : ٩٣ .

ربط القرآن الكريم بين العقل وأدواته من سمع وبصر ، وبين مشاهد الكون المادى ، وجعل مسرح التأمل والاستنباط فى صحائف الحياة المحسوسة ، ورفض ضروب التخمين التى كان يسبح فيها المنطق النظرى القديم .

كان التفكير القديم أشبه بهيمان الشعراء فى أودية الخيال ، وكان الجهد فيه مُضْنياً ، وقليل الجدوى ، وبعيداً عن الصواب .

يغلق فيلسوف بابه على نفسه ويرسل أفكاره داخل حجرته تسبح فى محيط لا نهاية له ، ويعود ببعض المبادىء والمناهج التى يظنها شيئاً طائلاً ، وهى فى ميزان الحق هباء لأنها مقطوعة العلاقة بهذا الكون الذى نعيش فيه .

والتأمل الذاتى يغلب عليه أن يفرض المرء أفكاره الخاصة على ما حوله ، فهو لا يتعلم من الكون حقائق كان يجهلها بل يصبغ الكون بالآراء التى يتخيلها ، وأغلبها حَدْس [1] نابع من توهم صاحبه .

لكن القرآن الكريم جَرَّ هذا المنطق الإنسانى النظرى إلى عالم الواقع ، وجعله وجهاً لوجه بإزاء آفاق الأرض والسماء ، وقال له : هنا فَكِّرْ ، ومن هنا استنبط :

« إنّ فِي خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالفُلكِ التى تَجْرِي فى البَحْر بِما ينفَعُ النَاسَ وَمَا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّماء مِن ماءٍ فأحيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابّة وتَصْرِيف الرِّياح والسَّحَابِ المسخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْض لآيات، لقوْم يَعْقِلُون » [2] .

والمنطق الإسلامى يتطلب من البشر أمرين .

أولها : أن يتدبروا ملكوت السماوات والأرض ، ويستكنهوا خواص الأشياء ، ويتعرفوا من فقه هذا الكون عظمة القائم على علوه وسُفْله ، وعرشه وفَرْشه .

والآخر : أن يسبحوا فى هذا الملكوت ، ويستكشفوا المجهول منه ، وينقّبوا فى البلاد ، ويكونوا من هذا الانطلاق عقلاً واعياً يحسن الإدراك والحكم ، فإن

---

(١) حدس : تخمين وظن .

(٢) سورة البقرة آية : ١٦٤ .

الاحتباس فى مكان واحد قصور فى التصور والتصوير :

« **أفَلَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فتَكُونَ لهُمْ قلوبٌ يَعْقِلُونَ بها أوْ آذانٌ يسْمعُونَ بِها فإنَّهَا لا تعمَى الأبْصَارُ وَلَكِنْ تعمىَ القلوبُ التى فى الصُّدُورِ** »[1].

وقد أفلح هذا المنطق الإسلامى فى شق طريق الحياة أمام أمة عاشت على هامش الحياة دهراً طويلاً ، واستطاعت هذه الأمة العربية أن تمسك أزِمَّة العالم المادية والأدبية قرابة ألف سنة .

ونحن نعرف أن أمتنا أدركتها فترة عصيبة من الانهيار الشنيع بعد هذه المدة الطويلة ، ولكن هل معنى ذلك أن يُجحد التاريخ ويُنسَى الماضى ؟

علام اعتمدت « أوروبا » فى يقظتها ؟

أعلى المنطق النظرى القديم ، وما حوى من تخمينات وأحداث ؟

أم على منطق التأمل فى الكون ، والاستفادة منه ، واستكشاف مجاهيله وهو منطق القرآن الكريم ؟

إن قادة الفكر الغربى الحديث أعلنوا كفرهم بالفلسفات النظرية الأولى ، ونادوا بصوت جهير أن العودة إلى أحضان الطبيعة ، والتأمل فى مجالات الكون أوْلى بهم .

فعن مَنْ ترددت هذه الصيحة ؟ عن العرب والمسلمين وحدهم ؟

يقول الدكتور الأهوانى :

« .. وقد رسخ فى الأوهام من قديم الزمان ، ومنذ قامت الفلسفة اليونانية وامتدت إلى العصر الوسيط ونفذت إلى العصر الحاضر ، أن الفكرة أسمى من العمل ، وأن عالم الأفكار يمتاز بالثبات والدوام ، وأنه هو عالم الحقيقة بالذات . أى أن للأفكار وجوداً مستقلاً فى عالم أسمى ، هو عالم العقل والمعقولات ، وعلى الإنسان أن يسعى إلى معرفة هذه الأفكار الموجودة وجوداً أزلياً باتباع مناهج

---

(١) الحج آية : ٤٦ .

القياس والبرهان ، حتى إذا فتح العلم فتوحاته الجبارة فى علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والحياة ، واتبع فى ذلك منهج البحث القائم على المشاهدة والتجربة ، والنظر إلى الوقائع ، كما هى عليه فى الوجود ، وكما هى عليه فى هذا العالم المتغير .

تنبه الانسان إلى أن الحقائق ينبغى أن تُلتمس من عالم الواقع لا من عالم أسمى من الواقع .

وإلى أن الأفكار العلمية تعتمد على الحِسِّ والتجربة ، وتستمد وجودها من تيار البيئة الحية .

وأنها لهذا السبب لا تمتاز بالثبات ، كما كان يعتقد المفكرون من قديم الزمان .

ثم أخذت المناهج العلمية المطبقة على الفلك والطبيعة والكيمياء والحياة تغزو ذلك الجانب الذى كان يُظَنُّ أنه مغاير فى طبيعته للعلوم الطبيعية .

نعنى به عالم الانسان ، وما يمتاز به من سلوك اجتماعى ، واقتصادى ، وسياسى ، وأخلاقى ، ودينى .

وبدأت علوم النفس ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة ، والأخلاق بل الدين ، تخضع للمناهج العلمية المضبوطة ، وأصبحت هذه المجموعة من العلوم التى تُسمَّى علوماً إنسانية خاضعة للتفكير العلمى الحديث ، فنزلت عن عالمها العلوى إلى هذا العالم الذى نعيش فيه » .

إن أثر العرب فى تحويل مجرى الفكر الإنسانى إلى وجهته الجديدة لا يمكن إنكاره .

وفَضْل العرب على أوربا فى نقلها من ظلمتها الأولى إلى نهضتها الحديثة ثابت مهما مَارَى [1] فى ذلك الحانقون .

واذا كان هناك من عيب كدَّر صفْو الحضارة الاسلامية ، فهو سماحها للفكر اليونانى أن يأخذ من اهتمامها قدراً لا يستحقه .

---

(١) مارى : جادل .

على أن الأوربيين أنفسهم لم يعرفوا تراث « يونان » مُهذَّباً مخدوماً إلا عن طريقنا نحن العرب .

أما أسلافهم فكان التفكير الفلسفى محظوراً عليهم ، بل كان احترام العقل وإكبار مقاييسه منكراً بينهم .

* * *

وقد انهارت الأمة الإسلامية الكبيرة قبل أن تصل مع منطق الفكر الاسلامى إلى نهاية الطريق ، فتسخر قوى الكون ، وتستكشف المجهول من جوانبه ، وسندرس أسباب ذلك الانهيار المحزن بعد قليل .

ونحن نعرف أن « ألمانيا » انهارت عسكرياً قبل أن تفجر القنبلة الذرية ، وأن « الأمريكان » و« الروس » سبقوها إلى ذلك التفجير .

لكن هل من المستطاع إنكار فضل العلماء « الألمان » والبحوث الألمانية فى ذلك الميدان ؟

إن علم هؤلاء الرجال المهزومين كان حجر الأساس فيما بلغه « الأمريكان » و« الروس » وقد كان العالم الإسلامى إبان ازدهاره هو السبب الأول والأخير فى إنهاض الغرب ، وتحريك لكاته الجامدة .

فهل الانهزام البعيد المدى الذى أصابنا يمحو فضلنا مَحْواً ، ويجعلنا غرباء فى ميدان المعرفة والثقافة ؟

إن الدعاية الكذوب تريد إفهامنا ذلك .

والاستعمار الحقود يبغى أن ينشأ مسلمو هذا العصر وهم فاهمون أن كفتهم طائشة من الأزل إلى الأبد ، وأن العرب جنس تافه ، ما قدم للإنسانية خيراً منذ وُجدَ إلى الآن ، وبالتالى لن يقدم للإنسانية خيراً ، أى أنه لا يستحق الحياة .

كتب الأستاذ العقاد رسالة عظيمة فى فضل الثقافة العربية وسَبْقها على ثقافة اليهود ، واليونان جميعاً ، وألقى فيضاً من الأشعة على هذه الحقيقة التى تتضافر

القوى المضللة على نكرانها . وقال :

« فيحق العجب ممن يجهل هذه الحقيقة التاريخية المسجلة بالكتابة منذ ألوف السنين ، بل بالحروف التى سبقت الكتابة والكتاب .

إلا أن الإشاعة الموهومة كثيراً ما تطغى على الحقيقة المسجلة ، ولاسيما الإشاعة التى تحتمى بالصَّوْلة الحاضرة ، وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة .

وقد أشاع الأوربيون فى عصر ثقافتهم وسلطانهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم الى العلم والحكمة .

واختلط على الأوربيين كما اختلط على غيرهم قِدَمُ « التوراة » بالنسبة إلى « الإنجيل » و« القرآن » وقِدم « الإسرائيليين » بالنسبة إلى « المسيحيين » و« المسلمين » .

فتوهموا أن « العبرانيين » سبقوا العرب إلى الدين والثقافة الدينية ، وكتابهم نفسه صريح فى حداثة إسرائيل وحداثة « إبراهيم » من قبله بالنسبة إلى أبناء البلاد العربية .

وليس أعجب من الجهل بالحقيقة التى تظهر هذا الظهور .

ليس أعجب من هذا الجهل إلا أن تكون الأوهام المشاعة بهذه القوة عند أقوى الأمم وعند أشهرها بالعلم والثقافة .

فلو لم يكن فى الصفحات التالية إلا أنها تكشف هذه الأعجوبة فى ناحية من نواحيها لكان ذلك حَسْبها من سبب يوجب علينا كتابة هذه الرسالة .

فهى تفصيل لما فى هذه الأسطر القليلة من إجمال ، وأيسر تفصيل كافٍ فى مجال كهذا المجال .

ثم يقول بعد شرح لا بُدَّ من الاطلاع عليه :

« ولعلنا فى نهاية هذا المطاف قد اتضح لنا المقصد الذى توخيناه وأجملنا بيانه فى كلمة التمهيد لهذه الرسالة .

فهو تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية فى ميادين الثقافة ، والحكم عليها أبداً ، وفى جميع الأحوال ، بأنها تبع مسبوق يقتدى باليونان فى ثقافة الفكر ، وبالعبريين فى ثقافة العقيدة ، وليس للأمة العربية سابقة من سوابق الفضل يدين لها أولئك اليونان وأولئك العبريون .

وقد لَجَّ الأوربيون فى هذه الدعوة لجاجة بغيضة تتكشف عن سوء نية . ويبدو عليها كأنها تتعسف فى البحث عن أسباب التجنى والإنكار فتخلقها خلقاً وتحيد عن الطريق السوى حَيْداً ، لكى تنتهى من ذلك إلى قَدْح فى الطبيعة العربية ، وتمجيد لطبيعة من طبائع الأمم سواها ، حيثما تكون .

فقد يترخصون أحياناً فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى سلالة هندية لأن الأوربيين يدخلون فى الجامعة الهندية الجرمانية، إذا دعت الضرورة .

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى سلالة صفراء أو طورانية ، لأنهم قد يعادونها اليوم ، ولكنهم لم يرثوا من أجدادهم عداوة لها من عصبيات القرون الوسطى .

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى العبريين ولو كان المترخصون ممن يُعادى اليهود فى المنافسات الاقتصادية أو العملية ، لأنهم لا يعدمون بينهم وبين هؤلاء اليهود صلة قديمة حين كانوا يوماً من الأيام شعب التوراة !

أما الأمة العربية فلا رخصة معها من هذه الرخص التى يصطنعها أعداؤها المتعصبون عليها ، بل تختفى كلها ويحل محلها عداء الميراث التاريخى ، وعداء الاستعمار ، وعداء الجهل ، وعداء الأنانية التى تغرى الجماعات أحياناً بالتحزب والأثرة ، كما تغرى الآحاد من الناس . فليس أيسر من تصديقهم لكل فِرْية تفترى عليها ، وليس أسرع من إنكارهم لكل مَحْمدة أو سابقة من سوابق الفضل تنسب إليها .

هذه اللجاجة البغيضة هى التى نريد أن نقضى عليها ونقضى على آثارها فى

أذهان المتأثرين بها من صَرْعى المذاهب الأجنبية بيننا نحن الشرقيين ، وهم — للأسف الشديد — غير قليلين .

ولكننا لا نريد أن نقضى عليها ونضع فى مكان الخطأ المنكر خطأ آخر من قبيله .

ولا نريد أن نمحو فضلاً لصاحب فضل ، ولا أن نبخس حقاً لصاحب حق ، ولا أن نبطل احتكار المزايا الإنسانية على أناس لكى ننقل هذا الاحتكار إلى أناس آخرين .

كل ما نريده أن ندفع شبهات القصور الأبدى المفترى على أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الإنسانية ، ويرجى أن يكون لها فضل مثله أو يفوقه على أجيالها المقبلة ، وهى فى مقامها الأوسط بين القارات ، وبين العقائد والثقافات .

ولقد كان نصيب الأمة العربية من تلك الشبهات « نصيب الأسد » إن صَحَّ هذا التعبير ، فأصابها منها أكبر نصيب تصاب به الأمم ، منذ أيام الشعوبية إلى أيام الاستعمار والتبشير والآرية والشيوعية !

كان يقال عن العرب ! إنهم بُعثوا بالدين ولم يُبعثوا بالدنيا .

وكان يقال : إنهم لا يصلحون فى دولتهم وغير دولتهم إلا محكومين .

وقالوا : إن العرب لا يحسنون من أعمال المعاش غير ما تعودوه فى البادية من رعى الإبل والماشية ، ولولا ذلك لما غلبهم طراق بلادهم من الغرباء على أسباب المعيشة .

وكل أولئك الدعاوى الكبار أضعف من أن يثبت على النظر المتأمل لحظات ، فضلاً عن الثبات فى مجرى التاريخ .

فمَنْ هم أصحاب الدولة الذين داموا فى مستعمراتهم أطول من دوام العرب ؟ أو تركوا بعدهم أثراً أبقى على الزمن من آثارهم ؟

أهم الرومان سادة الاستعمار القديم ؟ أم هم البريطان سادة الاستعمار الحديث ؟

إن الرومان خرجوا من كل وطن دخلوه ، ولم يستطيعوا أن ينشروا ديانتهم فى أمة حكموها ، بل كانوا هم الذين انقادوا آخر الأمر لديانة المحكومين .

أما الإنجليز فقد خرجوا من الولايات الأمريكية بعد أن سكنها منهم معظم المهاجرين إليها .

وقد خرجوا من الهند بعد أن استقروا فى كل بقعة من بقاعها أكثر من قرنين ، ولم يمكث سادة الاستعمار القديم ولا سادة الاستعمار الحديث فى مستعمراتهم كما مكث العرب فى الأندلس .

والإنجليز ما تركوا من آثار الحضارة والثقافة أثراً يقارب الأثر الذى أبقاه العرب فى الأندلس وفى القارة الأوروبية على الإجمال ، ومنه أثرهم فى عصر النهضة وعصر الإصلاح .

وقصور الحمراء والزهراء وما يماثلها من القصور التى ما قامت فى الشرق على نماذج الفن البيزنطى جواب ماثل للعيان لمن ينكر على الذوق العربى فنّ جميلاً غير فن القصيد .

فكل هذه القصور مميزة بذوقها العربى على القلاع القوطية والأواوين[1] الفارسية والعمائر الرومانية أو اليونانية ، منذ نشأتها الأولى إلى قيام الدعوة الاسلامية .

وطابع الذوق العربى هو طابع النخلة العربية بقامتها الهيفاء ، وفروعها التى تتلاقى فى عقود المربعات كما تتلاقى الأركان والأعمدة فى هندسة البناء ، حيثما طبعته بطابعها على الرغم من قيام البنائين أو المهندسين عليها من أبناء الأمم الأخرى .

وليس أبعد من البعد بين البحر والصحراء .

ولكن العرب ركبوا البحر فقبضوا بأيديهم على زمام الملاحة بين الهند وفارس

---

(١) الأواوين جمع إيوان وهو البهو العظيم أو الظُّلة الضخمة .

وسواحل إفريقية الشرقية .

فسُمِّى البحر كله باسم بحر العرب .

وسُمِّىَ الشاطىء الشرقى من سواحل إفريقية باسم السواحل حيث يتكلم الأفريقيون الآن باللغة السواحلية كما يسميها الأوربيون .

والتجارة من أسباب المعيشة ، فمن الذى بلغ بها ما بلغه العرب فى الهند وإندونيسية وإفريقية الوسطى ؟

إنها بلغت على أيديهم أن تكون فتحاً فى عالم الروح ، ولم تكن فتحاً فى عالم المال وكفى ، إذ أصبح فى تلك البقاع قرابة مائتين من الملايين من المسلمين لم يعرفوا دينهم من غير أولئك التجار الناجحين .

هذه الوقائع تصحيح بَيِّن لدعوى العصبيات الجنسية يرشد العقل البشرى إلى الصواب فى مسألة من أخطر المسائل العالمية ، ذات الأثر المتشعب إلى كل زاوية من زوايا العالم ، وكل علاقة من علاقات بنى الإنسان .

نعم . هى تصحيح للعقل البشرى يأتى فى أوانه وليس قصارى الأمر فيها أنها دفاع عن العرب أو تبرئة لهم من أقاويل دعاة العصبية المستعمرين والشعوبيين والمرددين لأصداء الغابر المهجور .

والرأى الجلى فى هذه الدعاوى العصبية إذن أنها من قبيل « الاشاعات » التى تُروِّجها المصالح إلى حين .

ويؤسفنا أن نصارح بأن التعصب المسيحى الذميم من وراء هذا الإنكار المستغرب لدور العرب فى بناء الحضارة الإنسانية ، ونصيبهم الضخم فى إعلاء شأنها .

وقد ألَّف العلامة « غوستاف لوبون » كتاباً قيماً عن حضارة العرب ، نَوَّه فيه بما أسدوه للغرب من أيادٍ لا يسوغ جحدها قال فيه :

ولقد قال « بارتلمى سان هيلير » ــ وهو من العلماء المتدينين ــ فى كتابه فى القرآن :

تدمثت نفوس قساة الطباع من سادة القرون الوسطى ، بملابستهم العرب وتمازجهم بهم ، وعرف الفرسان بدون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم شعوراً أرق وأشرف وأعرق فى الإنسانية من شعورهم . ومن المشكوك فيه أن تكون النصرانية وحدها ـ على ما حملت من المنافع ـ هى التى ألقت فى روعهم ما ألقت .. وبعد هذا النظر ، ربما تساءل القارىء .

ولماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ، وأنكر حسناتهم علماء عُرِفوا باستقلال أفكارهم ، وكانوا بحسب الظاهر بمعزل عن الأوهام الدينية ؟

وهذا السؤال قد سألته نفسى :

وأرى أن لا جواب عليه غير ما أنا كاتب ، ذلك أن استقلال آرائنا هو فى الواقع صورى أكثر مما هو حقيقى ، ونحن لسنا أحراراً على ما نريد فى خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا أحد رجلين :

الرجل الحديث الذى صاغته دروس التهذيب ، وعملت البيئة الأدبية والمعنوية فى تنشئته .

والرجل القديم المجبول على الفكر بخميرة الأجداد ، وبروح لا يعرف قراره يتألف من ماضٍ طويل ، وهذا الروح اللاشعورى هو وحده الذى ينطق فى معظم الرجال ، ويبدو فى أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التى اعتقدوها ، ويملى عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حداً عظيماً من الحرية فى الظاهر فتحترم .

« لا جرم أن أشياع « محمد » كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوربا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم فى عهد « شارل مارتيل » ، وفى الحروب الصليبية ، وبعد استيلائهم على « الأستانة » يذلوننا بمدنيتهم السامية الساحقة ، وإلى أمس الدابر لم ننجُ من تأثيراتهم .

ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءاً من نظامنا . وكانت هذه الأوهام طبيعة متأصلة

فينا ، كالبغض الدوىّ المستتر أبداً فى أعماق قلوب النصارى لليهود .

« وإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة فى إنكار فضل المسلمين ، هذا الوهم الموروث أيضاً النامى فى كل جيل ، بفعل تربيتنا المدرسية الممقوتة ، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتيتا من اليونان واللاتين فقط ، ندرك على أيسر سبيل أن تأثير العرب البليغ فى تاريخ مدنية أوربا قد عَمَّ تجاهله .

ويرى بعض أرباب الأفكار أن من المذلّ على الدوام الذهاب إلى أن أوربا النصرانية ، مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة التوحش .

وهناك أمر يحمل فى مطاويه ذُلّا كثيراً فى الظاهر لا يقبل تحمله إلا بشىء من العنت .

وذلك أنه كان للمدنية الإسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وتمَّ لها هذا التأثير بفضل العرب ، بل بصنع العناصر المختلفة التى دانت بالإسلام .

وبنفوذهم الأدبى هذّبوا الشعوب البربرية التى قضت على الإمبراطورية الرومانية.

وبتأثيرهم فتحوا لأوروبا عوالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله ، وعلى ذلك كان العرب ممدنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة .

وقال فى حاشية هذا الفصل :

إذا استحكمت الأوهام الموروثة وأوهام الثقافة فى رجل ، يعمى مع اتساع معارفه عن تفهم أسرار المسائل ، ثم ينطوى بعد ذلك على بغضين :

بغض الرجل القديم الذى أنشأه الماضى .

وبغض الرجل الحديث الذى هو ابن الملاحظة الشخصية ، ولا يلبث أن يأتى من التعبير بأفكار غريبة فى تناقضها .

ويجد القارىء مثالاً من المتناقضات فى محاضرة فى الإسلام ألقاها فى جامعة السربون كاتب مبدع عالم ، « عنيت السيدرينان » حاول أن يثبت عجز العرب ،

فنقض بيده كل مزاعمه !!! فقد ذكر مثلاً .

أن ارتقاء العلم كان بفضل العرب خلال ستمائة سنة ، وأبان أن التعصب فى الإسلام لم يظهر كل الظهور إلا لما خلفتْ العربَ عناصرُ مُنحطة كالبربر والتُّرك ، ثم جاء يؤكد أن الإسلام طالما اضطهد العلم والفلسفة ، مدعياً أنه قضى على العقل فى الأقطار التى افتتحها !!

ولكن باحثاً ذكياً كـ « السيد رينان » لا ينام على رأى مخالف لأصول التاريخ الظاهرة . فما أن تزول الأوهام فيه حيناً حتى يتجلى فيه العالم فيضطر إلى الاعتراف بفضل العرب فى القرون الوسطى ، وبما بلغته العلوم من الرقى فى أسبانيا مدة استظلالها بظل سلطانهم .

ومن الأسف أن الأوهام اللاشعورية تتغلب عليه حالاً فيدعى على وجه أكيد أن علماء العرب ليسوا عرباً بأصولهم ، بل هم أخلاط من أهل سمرقند وقرطبة وإشبيلية الخ .

وبديهى أنه لا يتيسر النزاع فى أصل الأعمال التى خرجت بفضل طرائق العرب ، ولعمرى هل من الميسور إنكار أعمال علماء الفرنسيين ، بحجة أن من تمت على أيديهم كانوا من عناصر مختلفة ، كالنورميين والسلتيين والإكتين وغيرهم ممن كَوَّنوا فرنسا بتمازجهم؟

وقد يكتئب هذا المؤلف العالم أحياناً من الأسلوب الذى جرى عليه فى إساءته للعرب ، وينتهى الصراع بين الإنسان القديم والإنسان الحديث فى نفسه إلى هذه النتيجة التى لم تكن متوقعة منه ، فيتأسف لكونه لم يُخلَق مسلماً قائلاً :

« وما دخلت مسجداً قط إلا عرانى خشوع يمازجه أسف ، على أنى لم أكُن مسلماً » . ا هـ .

أسباب انهيار الحضارة العربية :

عندما كانت أوروبا ترمى أسمالها [1] القديمة ، وترتدى ألواناً زاهية من البحث

(١) الأسمال : الأثواب البالية .

والمعرفة كانت الحضارة العربية ترتعش إعياء وتضطرب خطواتها هنا وهناك دون وعى ودون هدف .

والكتابة فى العلل التى أصابت الأمة الإسلامية ، وأذوت [٢] حضارتها ، وجعلتها تنسحب من ميدان الحياة تاركة العمل فيه لحضارات أقوى ـ لا تغنى فيها صحائف موجزة ، إنها تفتقر إلى أسفار مبسوطة الأطراف .

وأظن أن نهضتنا الحاضرة لن توق العوج وتحمى المزالق إلا إذا استبانت مصاير الذين سبقوها ، وأسرار الانكسارات التى أصابتهم .

ونحن فى هذه السطور نومىء إلى بعض عللنا التاريخية مُتوخِّين القصد تاركين الشواهد والتفاصيل لمقام آخر .

١ ـ أسباب عقلية :

(أ) فساد الثقافة الذاتية للمسلمين :

الزاد التقليدى من المعرفة ، الذى تنمو به الأمم كما تنمو الأجسام ، عراه ما يشبه التسمم ، فأصبح تناوله يُهزل ولا يُسمن ، ويضر ولا ينفع .

كان المسلمون أول أمرهم يفهمون دينهم بسهولة وسرعة ، ثم يعملون به عملاً وافياً دقيقاً .

وعلى مَرِّ القرون تحولت العلوم الدينية إلى صناعات عقلية كثيرة التقاسيم والتفاريع والاصطلاحات .

ثم بدأت تفقد طابعها الأول رويداً رويداً حتى صارت الآن شيئاً معقداً ممجوجاً تغيب روح الإسلام عنه ، ويختلط فيه الدقيق والجليل .

أما العمل بهذا كله ، فقد أصبح فاتراً واهياً ، أو موصولاً بالقشور دون اللباب .

---

(٢) أذوت : أذبلت .

وأغلب الكتب الدينية الآن يصرف القراء عن الفهم والاستيعاب ؛ ولا يقدم لهم الإسلام خلاصة واضحة مغرية .

ولا بُدَّ من إعادة النظر فى علوم الإسلام ، وكتابتها من جديد أقرب إلى أسلوب القرآن والسنة وأبعد عن طبائع القرون التى مضت .

(ب) انتشار الخرافات والبدع والتخامين فى أرجاء الحياة الإسلامية :

وغريب أن الأمة التى نَوَّه كتابها بالحق فى مئات المواضع ، عزَّتْ مصادر الحق فى جنباتها ، وأمسى الأفراد والجماعات يعيشون فيها وهم يعتنقون أفكاراً و يتبعون مذاهب لا أصل لها من دين ولا سِنَاد لها من عقل .

ومعروف أن فى الأديان ناحية غيبية يستكين فيها المؤمنون لربهم ولما جاء من عَقْده .

وليس أخطر على الأديان وأتباعها من توسيع هذه الدائرة .

إن هذا الاتساع قد ينشأ بادىء ذى بدء من غُلوّ المتعبدين ولكن امتداده لا يتم إلا على حساب النشاط الإنسانى المحترم ، إذ تشيع فى ظله الشعوذة والأراجيف والأهواء على أنها طقوس دينية ، وهى مساخر ودجل .

ومن المؤسف أن الأمة الإسلامية كانت أوائل هذا القرن فى ليل دامس من البدع والخرافات التى ظنوا أنهم يعبدون بها الله ، وما يعبدون إلا الشيطان .

ولما كان الإسلام ديناً شاملاً لأنواع السلوك الفردى والجماعى ، فإن دائرة الابتداع فيه مروعة ، وكان أصعب شىء على المصلحين رد هؤلاء المسلمين إلى دينهم الصحيح .

(جـ) ضعف إقبال المسلمين على شئون الحياة وعلومها ضَعْفاً شنيعاً ، وسَدُّوا المنافذ التى يطلون منها على آفاق الدنيا .

وزعموا التفوق فى الزراعات والتجارات والصناعات وسائر المهن والفنون

نافلة لا يحرص عليها ، أو زعموا ذلك من فضول الدنيا التى لا ينبغى للأتقياء الاستكثار منها .

وكان هذا الجهل بالدنيا مضارعاً للجهل فى حقائق الإيمان .

وبديهى أن يفضى بهم ذلك إلى المتالف ، وأن يفقدهم معاشهم ومعادهم معاً .

(د) شيوع التقليد وبلادة الذهن والجمود على الموروثات مهما كانت قيمتها . وهذه سيرة منكرة لأتباع دين يغالى بقيمة العقل الحر ، ويبنى الإيمان على أساس اجتهاد الفكر واتجاه الارادة .

إن فريقاً من علماء المسلمين يرون إيمان المقلد لا وزن له ، ويقولون إذا كان من عدل الله ألا يعاقب مَنْ لم يرتكب وزراً فمن عدله كذلك ألَّا يثيب من لم يصنع شيئاً !! يقصدون أن المقلد لم يكسب بجهده الفكرى أو النفسى ما يستحق عليه أجراً .

ودين يرتفع بقيمة العقل الى هذه القمة كيف يقبل الموتان الأدبى الذى ألفته جماعة المسلمين فى عصور الاضمحلال ، ومازال ينحدر بها من هاوية إلى أخرى حتى صَحَتْ وهى تحت أقدام الغزاة المستعمرين؟

والاستهانة بقدر العقل بلاء عَمَّ مصابه ، حتى إنك لتجد المسلمين فى بعض الأقطار أهلاً لأن يقال لهم ما قيل فى الجاهلية الأولى :

« وإذا قِيلَ لَهم تعالوا إلى مَا أنزلَ الله وَإلى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كَانَ آباؤهُمْ لَا يعْلَمونَ شَيْئاً ولَا يَهتدُون » (١).

٢ ـ أسباب نفسية :

(١) الغرور الدينى ، وهو داء عرفه اليهود والنصارى قبلنا ، يوم ادعوا أن لهم صلة خاصة تجعله يحابيهم مهما اقترفوا :

---

(١) المائدة آية : ١٠٤ .

« وقَالَتِ اليَهُود والنصارَى نَحن أبناء الله وأحبَّاؤهُ . قُلْ : فلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبكم بَلْ أنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّن خلَقَ »[1].

وهذا السفه انتقل إلى المسلمين ، وزَيَّن لهم أن مجرد انتمائهم إلى الإسلام ، وانتسابهم إلى التوحيد ينزلهم عند الله مكانة لا تدانى ، ويغتفر لهم كل ما يسلفون من خطيئة وتفريط .

واعتبار الدين عقيدة لا ترتبط بعمل أو لا تدفع إليه ، والاستهانة بمكانة العمل الصالح بعد ذلك سقوط لا ينجى من غوائله شيء .

وقد وُجِدَ فى المسلمين قديماً مَنْ يرى العمل نافلة ، أو يرجئه عن الإيمان ، ولكن هذا المذهب حُورِبَ من خاصة المسلمين وعامتهم حتى انقرض .

بَيْدَ أن للأسف عاد للحياة مرة أخرى بين جماهير من العامة والخاصة !!

ويستحيل أن تحيا أمة أو تبقى حضارة بهذا التصوير السخيف للإيمان .

(ب) الاكتفاء فى أحوال كثيرة بصور العبادات ، والتعويل عليها فى تقويم الأفراد ، ورسم الدرجات .

وهذا خطأ ، فليس كل مَنْ يرتدى لباساً برَّاقاً يكون نظيف البدن .

والإسلام يعتمد قبل كل شيء على سلامة القلب وصحة الضمير .

وكل طاعة تصدر عن قلب مغشوش فهى حابطة للأجر وإن راجت بين الناس فى الدنيا .

ونحن نلفت الأنظار إلى خطورة التديُّن الفاسد ، تديُّن الظواهر التى تخالف السرائر ، إما عن قصور فى تزكيتها أو هو الاكتفاء بالتشرد الخادع عن اللُّب العليل .

والأمم التى تقوم على الدين ينبغى أن تحذر هذا الاضطراب ، فإن الشهوات

---

(١) المائدة آية : ١٥ .

النفسية الذميمة هى هى سواء أخذت صورة معصية فاجرة ، أم توارت وراء ركوع وسجود لا يصلان الفؤاد بالله .

وقد وجدت ـ فى تجاربى ـ أناساً من العامة والخاصة ، أعنى ممن يحسنون القراءة الدينية وممن لا يحسنونها يدورون حول أغراضهم الذاتية بوسائل شتى ، بعضها عبادات وبعضها عادات ، فحركات الصلاة فى منطقهم لا تزيد عن خطوات المريب إلى حيث يشتهى ، وذلك سر نَعْى القرآن على أمثالهم :

« **وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلا الذينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغياً بَيْنَهُمْ** »[1] .

والحضارات الدينية يُطْعنُ عليها دائماً بمسالك هؤلاء الذين يسبحون الله بألسنتهم ولا يعرفونه فى أعمالهم وأحوالهم .

(جـ) انفراط عِقد الجماعة وانسياق كل امرئ فى سلوكه الخاص دون تقيد برسالة تُخدَم ، أو جماعة تُلْزم ، حتى لَيُخيَّل للإنسان أن هذا الإسلام أصبح ديناً لا أصحاب له ، ولا أوصياء عليه .

فإذا كان ينطلق بنفسه فلينطلق ، وإلا فكل مسلم معنِّى بشأنه وحسَبْ .

وهذه حالة لا تستمسك بها حضارة ، ولا تستوثق بها مدنية ، خصوصاً حضارة دين عام يجب أن تتساند القوى والمواهب والملكات لخدمته ، وإنجاح دعوته ، وإعلاء رايته .

إن العامل الأول فى قيام الحضارات وبقائها ، وحدة الغاية والجماعة ، فإن الحضارات ليست صناعة فرد ، ولا جهد قوم مبعثرين .

(د) أفتَكُ العلل التى أودتْ بالمسلمين وحضارتهم شيوع فلسفة الجبر بين الجماهير ، ورواج كسلها واستسلامها وعجزها فى أنفسهم وصفوفهم بعنوان « القدر » .

---

(١) البقرة آية : ٢١٣ .

والإيمان بالقدر واجب ، ولكن ما هو القدر ؟

أهو الزعم بأن الإنسان ريشة فى مَهبِّ الرياح لا قدرة له ولا إرادة ؟

وأن ما يلقاه فى الحياة لا دخل له فيه ، ولا كسب ولا اكتساب ، وإنما هو مكتوب لا مهرب منه ولا حيلة فيه !

هكذا فهم المسلمون القدر فانحطت هممهم وماتت أنفسهم ، وشلّهم العجز والقعود على حين ساح غيرهم فى البر والبحر كأنهم جِنٌّ لا يقدر عليهم أحد .

والقدر بهذا التفسير أكذوبة ، وصد الناس عن الإيمان به دين .

ولن تصح الأذهان ، ولا القلوب ، ولا تستقيم للناس معيشتهم ولا آخرتهم مادام هذا الاعتقاد الجهول سارياً فى أوهامهم .

وقد ساعد التصوف على نشر خرافة الجبر أو القدر بهذه الدلالة العمياء كما ساعد على ذلك الجهلة من القُصَّاص والمدرسين .

ومع أن المسلمين اضطرتهم الليالى القاسية إلى أن يصححوا أفهامهم فإن خطر الانتكاس فى هذه المأساة قائم ، ما بقيت كتب الثقافة الدينية تعجُّ بضروب من اللغو الذى يجر إلى القعود والإعياء .

٣ ـ أسباب اجتماعية :

(أ) تدهور وضع المرأة خلال القرون الأخيرة تدهوراً تنكره تعاليم الإسلام .

وانتهى أمرها إلى أن أصبحت كائناً محصور النشاط فى نطاق المتعة الحيوانية والحضانة الغريزية .

وحُرِمت من فنون العلم وأُسقِطت عنها ـ تقريباً ـ أنواع العبادات من صلاة وحج وزكاة وجهاد أدبى أو مادى ، إلى عبادة واحدة هى خدمة بيتها ورجلها .

وهى عبادة كانت تؤديها الأداء الذى يستطيعه مخلوق جاهل ضرير .

ومن تكرار القول أن نؤكد بُعْدَ هذه الحالة عن الإسلام ، ومنافاتها لوظيفة

المرأة كما تفهم من كتاب الله ومن سنة رسوله .

ونحن نرى الغيرة المتطرفة عند بعض الناس سرَّ هذا العوج ، وهى غيرة ظهرت أعراضها على بعض الناس ولم يكترث لها الشارع .

ففى آيات الملاعنة تحدَّث عبادة بن الصامت أنه يقتل مَنْ يراه فى بيته يبغى السوء ، والله ورسوله أغير على العباد منه ، ومثل هذه النزعة الباطشة لم تغير الحكم الباقى أبد الدهر ، وهو الملاعنة عند وجود مقتضيها ، بالأسلوب الذى أثبته القرآن .

وقد كره ابن « لعبد الله بن عمر » أن يخرج النساء إلى المساجد .

لكن « عبدالله » شتم ابنه لهذه الكراهية ، وقرر الحكم الشرعى دون اكتراث لعواطف ابنه الكاره .

بيد أن الغيرة المجنونة مضت بأصحابها تراغم تعاليم الإسلام حتى نسب لرسول الله ـ كذباً ـ أنه قال :

« لا ترى المرأة رجلاً ولا يراها رجل » !

وسنت بعد ذلك قانون الحجاب الذى قضى على المرأة أن تنكمش وتتلاشى وتقضى حياتها ، وهى شىء أشبه بسقط المتاع .

وقد حدث رد فعل محزن لهذه المشكلة ونشأت نهضات نسائية أغلبها رجس من عمل الشيطان .

ولاتزال الحاجة ماسة إلى حركة نسائية مؤمنة عاقلة .

والغريب أنّى قرأت ـ وأنا أكتب هذه السطور ـ نبأ استقدام وزارة الصحة لفوج آخر من الراهبات الأجنبيات للقيام على رعاية مستشفياتنا الفقيرة إلى العطف والحنان !

وقد أخبرنى مَنْ أثق فى دينهم أن هؤلاء الراهبات يؤدين أعمالهن بمهارة وأدب عاليين .

أين من هؤلاء خليعات الحركات النسائية ؟

وأين من هؤلاء قعيدات البيوت للثرثرة والنوم ؟

(ب) ومن المفاسد التى شاعت فى أمتنا التطاول بالأنساب ، وتمزيق عرى الأخوة الجامعة بمزاعم مستغربة تجعل هذا سليل دوحات شرف وذاك سليل نكرات تافهين .

وتبع هذا تنابز بالألقاب . واحتقار لجملة من الأعمال والحرف ، وتقاليد تصمم قوماً بالحسب الزاكى ، وآخرين بالمعدن الخسيس .

ولايزال ناس من البدو فى بلادنا يستعلُون على الفلاحين ، ويرفضون الإصهار إليهم ، وربما قتلوا بنتهم إذا رضيت بالزواج من قروىٍّ كادح .

والتفاوت بين البشر حقيقة لا ريب فيها .

لكن هذا التفاوت لا يورث فى سلاسل من الأعقاب لا نهاية لها ، حتى يقال بيت فلان وبيت فلان .

فُربَّ مغموص الشان ولد الملوك .

ورُبَّ مُملَّك على مَفْرقِهِ التاج رزق من الخلال ما يجعل السوقة أكرم منه وأرق .

وكان خيراً لأمتنا أن تحذف أشجار النسب التى يحتفظ بها البعض ، وأن تحترم مقياساً واحداً للأصالة والوضاعة هو المقياس الذى أثبته القرآن ولم يثبت غيره .

(جـ) لم يعرف المجتمع الإسلامى الرهبانية ، ولم يَقُمْ على الكبت الجنسى ولا الحرمان المادى .

وليس ذلك لأنه ـ من الناحية الجنسية مثلاً ـ أباح الاختلاط الفاجر المأنوس فى الغرب ، كلا ، فالمجتمع الإسلامى ـ من ناحية مُثله العليا ـ لا يعرف هذا الاختلاط اللعين ، ولا يقر ما ينتهى إليه من انحلال عام .

ومن الناحية العملية آثر أغلب المسلمين التطرف فى حجب كلا الجنسين عن الآخر ، وجاروا على تعاليم الإسلام وحقوق المرأة .

إلا أنهم مع ذلك كانوا عمليين فى فهم الطبيعة الجنسية فجعلوا الزواج المبكر حلاً سريعاً لمشكلتها ويسَّروا التعدد الذى بلغ بهذه الغريزة حَدَّ الإشباع .

وذلك عكس الحاضر الإسلامى الذى لم ييسر الحلال كما فعل الأولون ولم يقبل الحرام بطبيعة مواريثه الروحية فنشأت الأجيال الجديدة نشأة معقدة كئيبة .

وكما فعل المسلمون الأوائل فى إجابة الغريزة الجنسية مشوا مع منطق الإسلام فى استباحة الطيبات ، فعرفوا ألوان الطعام ورصَّعوا موائدهم بالكثير منه .

والمأخوذ على الأمة الإسلامية فى هذا الجانب المادى أنها لم تلزم الاعتدال الذى وقفها الشارع عنده ، بل تجاوزته إلى السَّرف والترف ، مما أثر فى وفائها لرسالتها الكبيرة .

(د) وبديهى أن يعرف المجتمع الإسلامى الغنى والفقير ، وأن يعانى فى تاريخه الطويل هزات أسيفة مرجعها الخلل الاقتصادى .

خصوصاً إذا شاع الترف فى طبقات أسعفتها الحظوظ ، إن ذلك مستتبع حتماً الشظف فى طبقات أخرى .

ولولا أن العقيدة الإسلامية تقيم كيانها على المواساة والبذل ، وتُكلِّف المؤمن مع إيمانه بالله أن يعين الفقير لكان المجتمع الإسلامى قد تحول إلى الشيوعية من قديم .

إن طبيعة الدين الذى ساد هذه البلاد جعلت الأفراد الواجدين ، ومستورى الحال ، يرَوْنَ لزاماً عليهم مساعدة غيرهم ، كما أن أولى الثروة والجاه كانوا يرون من تمام وجاهتهم بذل الفضول لقُصَّادهم ، ومن ثَمَّ نجت البلاد الإسلامية من نزق الثورات المتطرفة ، ومن الإلحاد المسلح الذى عرفته أوربا وغيرها .

إلا أن المأخوذ على الحضارة الإسلامية أنها لم تحكم نظام الزكاة إلى اليوم ولم

تتبع ثغرات الجماعة بالاستقراء الشامل لتسدَّها ، سواء بإتاحة العمل للقادرين أم بإتاحة الأعطية للقاعدين .

(هـ) وعرف المسلمون التجمعات الفكرية والعبادية والجهادية ، وإن كانت لم تأخذ شكل الأحزاب السياسية المعهودة اليوم فى البلاد الديمقراطية .

وفى مطلع القرن الرابع عشر للهجرة كانت جماهير المسلمين منتظمة تقريباً فى الطرق الصوفية ، وهى طرق أضرَّت كثيراً ونفعت قليلاً .

ومن المهم أن تتاح للأمم فرص التجمع الحر ، على أن يكون هذا التجمع محكوماً بمنطق العقل والمصلحة ، وعلى أن يبتعد عن دواعى التعصب والتعسف ، وعلى أن يدخل فى إطار الوحدة الدقيقة للأمة .

والمؤسف أن الأمة الإسلامية تحولت فيها هذه التجمعات إلى كتل متنافرة متناكرة ، وأنها لم تستهدف المصلحة العليا بل غلبت عليها النزعات الخاصة .

وقد شاهدنا ـ ونحن غلمان ـ المساجد الكبرى تقام فيها عدة جماعات للصلاة الواحدة فى الوقت الواحد تبعاً لاختلاف الفقه المذهبى !!

وهذا منكر قبيح .

ومن المآخذ علينا : إقرار هذه الفُرْقة .

٤ ـ أسباب سياسية :

إذا كان انهيار الحضارة العربية يرجع إلى ما ذكرنا من أدواء فكرية وخلقية واجتماعية ، فإن هذه كلها تعدُّ عوامل محدودة الشر بالنسبة إلى الفساد السياسى الذى صدَّع بناء هذه الحضارة كما يصدع الزلزال دعائم القصر الأشمِّ .

كان هذا الفساد أسرع شىء إلى حضارتنا ، بل كان الكهف الذى آوى جراثيم المفاسد الأخرى ، وتركها تنهش باطنها وظاهرها ، وتصارع أسباب الصحة والنماء لتعجل بحَتْف هذه الحضارة العظيمة .

وبدأ هذا بجذع الحكم ، وأصله الأول ، أعنى : الخلافة ، فالمفروض عقلاً ونقلاً أن يختار المسلمون خليفتهم من بين أعظم الكفايات فيهم ، إلا أن سطوة

العصبيات وغلبة الشهوات هدمتا هذه القاعدة فإذا الخلافة ميراث شخص يتركه والد لولده .

ولو أن الخلافة نوع من السلطان يشبه المُلْكَ الزمنى لأمكن مع الترخيص والإغماض أن يفهم هذا الوضع ، وأن يحاط بالضمانات التى تسدده .

لكن الخلافة نيابة عن رسول الله فى مصالح الدين والدنيا ، أى أنها زعامة روحية وعقلية ومدنية وعسكرية ، فكيف يمرق مخلوق من بطن أمه ليتلقفها وهو يبول فى مهده ، وكيف تكون الخلافة حكراً فى بيت من البيوت يموت رَبُّه [1] فينالها من بعده ابنه ؟؟

إن الذين يركبون أى سيارة فى مدينة القاهرة ما يطمئنون إلى الجلوس فيها والانطلاق بها إلا إذا كانوا على ثقة من أن السائق يحسن القيادة .

فإذا كنا لا نعطى رخصة القيادة إلا رجلاً مدرباً كى نأمنه على مصير عدد من الناس قليل ، فبأىِّ منطق يملك رجل من الناس قِيادَ أمة هائلة ، لا لشىء إلا لأنه ابن فلان !

وما فلان هذا الآخر ؟ إنه مثل الأول ، شخص لو اشتغل بمواهبه قد يصلح حمالاً أو ممثلاً ، أو بقالاً أو إسكافياً ، لكنه لا يصلح لشىء من مهام الحكم .

ولو صلح بمحض الصدفة ، فليس يصلح للخلافة عن رسول الله .

لكن هذا الهزل هو الذى ساد بلاد الإسلام دهراً ، بعد أن طُوِيَتْ أعلام الخلافة الراشدة ، وقضى عليها معاوية بن أبى سفيان .

إن توريث إمارة المؤمنين الذى ابتدعه معاوية مُقلداً لمجوسية الفارسية ، والصليبية الرومانية كانت بداية الشرر الذى تحوَّل على مَرِّ الليالى حريقاً مستعرة دمرت الأخضر واليابس فى الحضارة الإسلامية المظلومة .

والخلل السياسى الذى ولد على جسم الأمة « رأساً » من هذا الطراز سرت عدواه إلى الشبكة الإدارية التى تعاونه فى العمل .

---

(١) ربه : صاحبه .

فأهمل ميزان الكفاية ، وأمسى اختيار الأعوان منظوراً فيه إلى مرشحات كثيرة . وربما كانت المهارة والمقدرة آخر المسوغات التى تقدم أصحابها لما يستحقون .

بدأت الأطماع الشاذة تضطرم فى هذا الجو .

وظاهر من ملاحظة تاريخنا السياسى أن الفساد استشرى بعد مدة من ميلاد هذا النظام الوراثى .

وذلك أن الجبابرة الذين قضوا على سُنَّة البيعة فى اختيار أمير المؤمنين ، سوَّغوا بقاءهم فى نظر العامة والخاصة باحتضان المثل العليا للجماعة والحماس فى خدمتها ، فسيَّروا ألوية الجهاد شرقاً وغرباً ، وتظاهروا بكل ما يعطى بقاءهم صفة مشروعة .

إلا أن هذه السيرة موقوتة معلولة ، وسرعان ما تنتهى بعد استقرار الأمور للبيت الحاكم بأمره ، وعندئذ تنكشف السرائر على ما بها من دَخَلٍ ، فلا يُعنى هؤلاء الحاكمون إلا بامتيازاتهم الخاصة .

ولا يكون الحكم إلا استدراراً للمنافع وافتياتاً على الجماهير ، واضطهاداً للأمة والعلماء .

انظر أحد طلاب الحكم يقول :

إذَا لم تكُنْ لى فى الولايةِ بسطةٌ يطُول بها باعى وتسطُو بها يَدِى
فَلا كانَ لى حُكْمٌ مُطَاعٌ أُجيزهُ فأرغِمُ أعدائى وأكبِتُ حُسَّدِى

عجباً ، أهذه وظيفة الحاكم ؟ أم هى جنون السيطرة ؟ أهذه مصالح الرعية ، أم هى رغبة الانتفاخ والانتفاش ؟

ثم انظر كم ترى البَوْن بعيداً بين هذا السعار فى طلب الإمارة وبين تجنيب عمر ولده ولاية الأمر من بعده مشفقاً أنَ يكون فى آل الخطاب أكثر من واحد يُسأَل عن شئون المسلمين ؟

كانت الخلافة الراشدة ــ شأن أى حكم تتمثل فيه إرادة الأمة ــ ترحب بالنقد

والنصح ، لكن النظام الملكى يرد الأيدى فى الأفواه إن حاولت النطق بكلمة .

وقد قُتِلَ عثمان وهو يرفض إصدار أمر بمقاتلة الجماهير التى حاصرت قصره على حين يرى أولئك الحاكمون قتل الألوف فى سبيل التمكين لأنفسهم .

ولن يخطئك منظر الدماء التى صبغت صحائف شتى أيام العرب والترك على سواء .

وقد ضاق الفقهاء والأدباء بهذا الانحراف السياسى والإدارى ، وكادت الوحشة بين علماء الدين ورجال الحكم تكون طابعاً عاماً لهذا التاريخ .

وكأن أبا العلاء المعرى كان يصور رأى الأئمة من رجال الفقه والتربية حين قال :

مل المقام فكَمْ أُعاشِرُ أمةً أمرَتْ بغير صَلاحِها أمراؤُها
ظلموا الرعيةَ واستجازُوا كَيْدها وعدوا مصالحها وهُمْ أُجرَاؤُها

ويقول أبو الطيب :

وإنما الناسُ بالملوكِ ومَا تفلح عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ
لا أدبَ عندهُم ولَا حَسَبٌ ولا عهود لهم ولا ذِمَمُ
بكُلِّ أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غَنَمُ
يستخشن الخزَّ حين يلمسُه وكان يبرى بظُفْره القلمُ

وليست المشكلة ، كما يصورها المتنبى ، مشكلة عرب وعجم ، فهذا منه شرود عن الجادة ، والمتنبى ترك سيف الدولة العربى إلى كافور العجمى قائلاً :

قواصد كافورٍ توارك غيَره ومَنْ قصدَ البحرَ استقلَّ السَّواقِيا

ويقول فى مدحه :

أبَا كل طيب لا أبا المسك وحده .

وإنما المشكلة ، فساد الطريقة التى يصل بها الناس إلى المناصب الكبيرة ، وفقدان الضوابط التى تحرر المصلحة العامة من العبث ، وفقدان الموازين التى ترجح بها الكفايات وتطرح بها النفايات .

وإذا كانت رياسة الولايات ، بعد رياسة الأمة جمعاء تتبع نوازع الهوى ، فإن سائر الوظائف لن تعدو هذه السياسة الطائشة .

والأمم تحيا وتموت وَفْق أحوال الدولة التى تقوم على شئونها :

تهدى الأمورَ بأهل الرأى ما صلُحَتْ فإنْ تَولّوا فبالأشرارِ تنقادُ
إذَا تولّى سَراةُ الناسِ أمرهُمُ نما على ذَلك أمرُ القومِ فازدادُوا

فما يكون المصير إذا تولى أمور الناس ضعاف الرأى والخلق ، وإذا أضحت الوظائف نُجعة [1] الطامعين وهدايا للمقربين .

جاء فى كتاب الفخرى :

« إن وزارة الخاقانى بلغت من الفساد مبلغاً كبيراً ، وولى الوزير فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة فانحدر واحد واحد حتى اجتمعوا جميعهم فى بعض الطريق فقالوا : كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : إن أردتم النِّصْفة فينبغى أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير ، فهو الذى ولى ولاية صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد فاتفقوا على ذلك .

فتوجه الرجل الذى جاء أخيراً نحو الكوفة ، وعاد الباقون إلى الوزير ففرَّقهم فى عدة أعمال ، وهجاه الشعراء فمما قيل فيه :

للدواوينِ مُذْ وليت عويلُ ولمال الخراج سقم طويلُ
يتلقى الخطوب حين ألمتْ منك رأىٌ غَثٌّ وعقلٌ ضئيلُ
إنْ سَمِنْتم من الخيانةِ والجوْ رِ فللارتفاعِ جسمٌ نحيلُ

* * *

نحن إذ نقارن ما وقع من المسلمين بما يجب عليهم لا بُدَّ أن نفرِّق بين المجتمع والدولة ، ذلك أن المجتمع الإسلامى حرص على إنفاذ تعاليم الإسلام جهده .

فكان الناس فرادى وجماعات يتحرَّوْن مرضاة ربهم ، ويقاربون من الغاية إنْ لم يبلغوها .

---

(١) أصل النجعة فى اللغة : الموضع من الأرض يسعى فيه الناس لطلب العشب .

وكانت الفجوة عميقة بين الأئمة المتبوعين والعلماء الراسخين وأهل الصلاح من ناحية ، والسلاطين والولاة وأجنادهم من ناحية أخرى .

إلا أن جماهير العلماء منذ صفين كانت تكره الإفتاء الذى ييسر الخروج على الحكام ومقاتلتهم ويرون العزلة أجدى حتى تتغير الأحوال من تلقاء نفسها دون ثورات قد تكون عقباها نكبة على الإسلام حكومة وشعباً .

وربما أعان على تسويغ هذا الموقف ما ذكرناه آنفاً ، من أن خلفاء أمية والعباس فى مفتتح تملكهم كانت غيرتهم بادية على استئناف النشاط الإسلامى فى شتى الميادين .

غير أن هذه الغيرة المفتعلة لم تكن إلا سِنَاداً للحكم الفردى حتى يستقر ، فإذا تطامنت له البلاد والعباد ، سار وَفْقَ هواه ، ونسى ما خيل به على الناس أول قيامه .

ومن ثَمَّ ضعفت الروح الدينية بين رجال الدولة ، ونَبَتْ [1] مسالكهم عن أحكام الشريعة فى أحيان كثيرة .

والأنكى من ذلك هو أن أرباب الكفايات وأولى العزم من الرجال الذين عصب النصر جبينهم فى وقعات هائلة ، أعلوا فيها قدر الإسلام ، وغرسوا أعواد التوحيد فى أرجاء الصين شرقاً ، والأندلس غرباً ، إن هؤلاء كانوا يستحقون كل تكريم .

ومع ذلك فإن القائد الشاب القاسم بن محمد ، والقائد الفحل موسى بن نصير ، وغيرهما غُمِطَتْ جهودهم ولقوا على جهادهم المبرور جزاء سنمار .

وتلك طبيعة النظم الاستبدادية والسير الملوكية .

وقد تعجب إذ ترى مثلاً هارون الرشيد يبعث بهداياه إلى « شارلمان » ملك الفرنجة ، أفتظنه يفكر فى إنشاء صلة مودة بينه وبين الحكم الإسلامى فى الأندلس ؟

---

(١) نبت : بعدت .

لا.. إن العداوة بين البيت الأموى والبيت العباسى قائمة .

وعلى الإسلام وأهله أن يحملوا أوزار الخصومة بين بيتين من البيوت التى سَوَّدَتها الحظوظ !

وكذلك فعل السلطان سليمان القانونى الذى عقد معاهدات وُدٍّ متبادل بين الخلافة العثمانية وبين ملوك فرنسا وإيطاليا .

هل فكّر الخليفة التركى فى إنجاد إخوانه المسلمين بالأندلس ، وكانوا يومئذ يعانون حرب إجلاء وإبادة من نصارى الغرب..

كلا.. إن الأمر لا يعنيه كثيراً !

إن الأسرة التى تتوارث الحكم تهمها أمجادها الخاصة ، فهى تحارب لضم بلاد إسلامية تحت لوائها ، وربما رحبت بتلاشى أسرة أخرى تحكم شعباً إسلامياً لا يخضع لها هى ..

وهكذا سقطت دولة الإسلام فى الأندلس !

* * *

وهناك فصلان متميزان يمكن أن نُفرد كلاً منهما بنظرة خاصة :

الفصل الأول ، حالة المسلمين قبل الحرب الصليبية الأولى فى العصور الوسطى .

والفصل الثانى : حالة المسلمين قبل الحرب الصليبية الثانية فى العصر الحديث ، أعنى الغزو الاستعمارى الأخير .

المسلمون فى لفصل الأول كانوا من الناحية الشعبية أدنى إلى الإسلام ، وأحرص على نعاليه .

أما من الناحية الحكومية ، فإن النزاع بين الولاة المتغلِّبين ، والخلفاء الطامعين ـ كان مستفحلاً بالغ السوء .

ولو وُجِدتْ حكومة شرعية صالحة ، ما وُجِدتْ هذه الحروب الصليبية البعيدة

الأمد ، التى ظلت مشتعلة الأوَار طيلة قرنين من الزمان .

حكومة يقظة واحدة فى أول الزحف الصليبى كانت تستطيع الإجهاز على الغزاة ، وإطعام الطير جثثهم !

إن هذه الحروب التى استغرقت مائتى سنة لم تكن تستغرق ، لا أقول مائتى شهر ، بل مائتى يوم لو أن الحكومة المركزية للأمة الإسلامية كانت تمثل أميراً للمؤمنين يرعى الإسلام وأهله ، وتحفّ به الجماهير عن إخلاص وإعزاز .

إذن لَلقّنَ الصليبيين درساً يروونه لأبنائهم ، لو عادت منهم بقية .

لكن الأمراء المتنازعين على السلطة تواكلوا واسترخوا ، وتربص بعضهم ببعض .

فكانت النتيجة أن تثبت الغزاة بالأرض التى سقطت فى أيديهم ، وتطاولت آماد القتال ، بين الأمة التى صحتْ على العدوان وبين المعتدين الذين أغراهم الظفر .

وانسابت جحافل أوربا من كل صَوْب وحَدْب ، وهى تأمل فى القضاء على الإسلام واجتثاث جذوره .

ومرت السنوات بطيئة ثقيلة ، وذهب أجداد ، وجاء أحفاد ، وهذه البقاع من أرض العروبة تشهد حرباً إثْر حرب .

حتى انتهت المعارك آخر الأمر باندحار الأوربيين وتسليمهم جميع البلاد التى اغتصبوها ، وعودتهم من حيث أتوا خائبين خاسئين ..

وجمهرة المؤرخين متفقون على أن المجتمعات العربية كانت أعلى مستوى ، وأزكى خلائق ، وأنضر معرفة ، وأجدر بالحياة من الهاجمين الذين قصدوهم ..

ولولا أن الكيان العربى صَلْبُ العود ، وأن الفساد السياسى كان يمثل قشرة معطوبة فيه ، أو ثمرة فجة منه ما استطاع الصمود لهذا البلاء الماحق الذى نزل به بغتة .

لقد كان كالجسم الفتىّ حلّتْ به علة فادحة فإذا هو يلقاها بكل ما ادخر من لحم وعظم ، ويقاومها بما انساب فى أوصاله من مناعة وجلادة حتى نجا من الكارثة وما كاد ــ بعد ابتلاء وتمحيص شديدين .

أما الفصل الثانى من هذا الصراع المرّ ، أعنى مقدمات الهجوم الصليبى الحديث فيبدأ من تسلم الأتراك مقاليد الحكم فى الأمة الإسلامية .

لقد اضمحل السلطان العربى ، وأخذ يتراجع رويداً رويداً ، وحَلَّ الترك مكان العرب فى الإمساك بزمام القيادة .

والترك جنس شجاع قوى الشكيمة ، وكان يتحلى بصفات حسنة يوم وثب إلى الصدارة فى تاريخنا .

وقد جدد قوى الإسلام بما فُطِر عليه يومئذ من بداوة ، وإخلاص ، وتضحية وبعده عن الترف المادى والعقلى الذى انغمس العرب فيه حيناً من الدهر .

لكن العبقرية العسكرية للترك لم تصحبها للأسف عبقرية علمية ولا إدارية .

ولست أرغب فى النَّيْل من أمة لها محامدها المذكورة ، ولها كذلك معايبها .

ولعمرى إن العرب فى ذلك كالترك ، لهم خصائصهم العالية ، ولهم أيضاً ما يُلامُون عليه ، هذه العصبيات الطائشة التى لا تقطع لهم تهارشاً ولا تشاجراً ، ألم تكن سر ما أصابهم وأصاب الإسلام معهم ؟

ولْنَعدْ إلى فترة السيادة التركية لنعرف منها أحوال المجتمع العربى والإسلامى . إن الترك نجحوا فى كسب معارك عسكرية عظيمة فى البر والبحر جعلت المسلمين أكبر قوة فى العالم ، وجعلت البحار الثلاثة : الأسود والأبيض والأحمر بحيرات إسلامية خالصة .

لكن هذا النجاح مؤقت ، ولعل مكاسبه كانت من مدخرات الإسلام الأدبية فى قرونه الأولى .

ولم تُؤْت هذه الانتصارات ثماراً ذات بال ، ذلك لأنها لم تقترن بقدرة علمية ، ولا مهارة إدارية ، ولا بصيرة سياسية .

ولم تكن الدولة تدرك حَقَّ الإدراك وظيفتها فى خدمة الدعوة الإسلامية ، ولم ينهض فى كنفها من الأئمة والعلماء والمربين والدعاة ما يكمل هذا النقص ، وكان هؤلاء وفرة أيام السيادة العربية ــ ومن ثَمَّ تحولت فتوح الدولة إلى عبء عليها بدل أن تكون مدداً لها .

ولو أن هذه الفتوح جلبت خيراً يُذْكر ، ما كان هذا الخير يساوى شيئاً إلى جانب خسارة الأمة الإسلامية نفسها . أجل ، إن الدولة التركية ــ بقصورها الأدبى ــ خسرت رأسمالها من المسلمين أنفسهم ، فى بلادهم الطويلة العريضة ، فإن هؤلاء المسلمين أخذوا ينحدرون قليلاً قليلاً فى مجال العلم والعمران .

فإذا العواصم التى طالما دَوَّتْ بالدروس والمناظرات يخفت صوتها ، وتقفر عرصاتها ، وتُغلَق مكاتبها .

وإذا المدائن والقرى التى كانت أسواقاً للخيرات ، ومجالاً للفنون والصناعات تذوى وتضمر وتعتلّ .

وتتابع هذا الانهيار دون أن يجد مصلحاً ينذر بسوء العُقْبى .

وقلّ عدد السكان فى أودية الحضارات العريقة مثل النيل والفرات حتى بلغ سكان مصر قرابة مليونين ونصف ، وسكان العراق أقل من ذلك كثيراً ، مع أن هذه الأقطار أيام العرب كانت غاصة بأضعاف هؤلاء السكان .

وبهت لون الإسلام نفسه ، وفسدت مبادىء كثيرة منه ، وتحول التوحيد إلى شرك ، أو كاد ، وتحول العقل إلى جنون ، أو كاد .

وذلك كله فى وقت كان الغرب فيه يرْقى صعداً فى معارج المعرفة ، وكان عصر النهضة الأوروبية قد بدأ يهز الشعوب الخاملة ، وينفى الكرَى عن أجفانها ، ويطلقها هنا وهناك تكشف المجهول ، وتعمر آفاقاً أخرى فى البر والبحر ..

فلما وقعت الواقعة وتحرك الصليبيون الجدد نحو العالم الإسلامى ، كانت المقاومة عبثاً .

وغاص الفاتحون فى أعماق القارات المسلمة ، دون أن يستطيع الترك أو العرب صَدَّ العدوان المسلح بأسلوب مجد .

* * *

هل أغمط المدافعين حقهم فأطوى صحائف جهادهم دون تنويه بها ؟ كلا .. إن الأبطال الذين بوغتوا بالغزو لم يستسلموا لزحفه على ضعف أسلحتهم وفتك الأسلحة التى بأيدى عدوهم .

بل إن المقاومة الفردية والشعبية بلغت حدًّاً ما يطيقه البشر ، وإن كانت النتائج لا ترضى .

إن ثوار فلسطين ، وثوار الجزائر والجماعات المكافحة فى أقطار أخرى ، بذلت ولا تزال تبذل الكثير ..

ولكن المسلمين اليوم يجنون ما فرط آباؤهم ، وجهاد المعاصرين سوف يؤتى ثماره لا ريب ، وربما لا يجنيها إلا أولادنا وأحفادنا ..

والخسار العسكرى جزء محدود فى تقويم الحضارات .

والأمم لا تزول إذا تركت قطراً ، أو فقدت نصراً .

وإنما تزول إذا ضاعت عقائدها ومناهجها ، وتلاشت شاراتها وشعائرها ، أو كان ما بيدها من تعليم يناقض منطق الحق ، وكرامة الإنسان ، ومسير الحضارة .

وهذا ــ بالنسبة لنا نحن المسلمين ــ لا وجود له .

فنحن نملك رسالة هى جوهر الحق ، ولباب العدالة ، وضمان الخير ، وسياج المصلحة ، لا لجنس بعينه ، ولكن لأهل المشارق والمغارب .

ولذلك من حقنا أن نبقى ، بل يجب أن نبقى ..

طريق العودة :

ليس أمام العرب عدة طرق يوازون بينها ويختارون منها ..

إنها سبيل واحدة يتعين عليهم أن ينطلقوا فيها لا يلوون على شيء ، تلك هي سبيل الإسلام ، الدين الذى أعز آباءهم ، وصنع حضارتهم ، وبوَّأهم القِمم وكانوا من قبله صفراً .

ونحن نعرف أن الهزائم الأخيرة أمام الزحف الصليبى الحديث أوجدت عصابات من الساسة والقادة والكُتَّاب والخطباء يشككون فى قيمة الإسلام ، بل يدعون سراً وجهراً إلى الخلاص منه كُلًّا وجزءاً ، والإقبال على أوربا ظاهراً وباطناً .

ومع أن هذه العصابات تظاهرها قوى الغزو الغالبة ، وتساندها بالمال والجاه . ومع أنها انفردت بزمام التوجيه فى أقاليم كثيرة .

إلا أنها فشلت فى صرف الجماهير عن دينها ، وحملها على الكفر بكتاب ربها وسُنَّة نبيها .

وهى لا تزال دائبة السعى ، ومن ورائها الدوافع التى كشفناها ، وهيهات أن تستسلم الجبهة المؤمنة ، وإنْ عَرَاها الإعياء فى بعض الأحيان .

ونحب أن نقول فى إيجاز : إن محاولة هدم الإسلام لإقامة نهضة أخرى فى بلاده قد تستغرق ــ لإتمام الهدم ــ مائتى سنة ، وبعيد أن تنجح ، فإذا حدث جدلاً أن هدمت هذا الدين فقد تستغرق مائتى سنة أخرى لبناء نهضة على أسس مغايرة ، وبعيد كذلك أن تنجح !

أى إن العراك العنيف الناشب الآن مع مبادىء الإسلام لا جدوى منه إلا تأخير الاستقرار قرابة أربعة قرون فى انتظار وَهْم يخامر بعض الساسة الخونة .

إن الغزاة المزودين بكل شيء ، والمتوَّجين بأكاليل الكفر يحاولون ــ منذ مائة سنة فى بعض البلاد ، ومنذ مائتين فى البعض الآخر ــ أن يجهزوا على روح الإسلام بعدما قطَّعوا أطرافه ، فماذا بلغوا ؟. إن هذه الآلام لم تقتل الدين النابض القويم ، بل استثارت غرائز المقاومة التى همدت أيام انهيار حضارته ، فإذا هو يلُمُّ

شعثه ، وينفى عنه الأوضار [1] التى شانته ، ويعطف ما تتنافر من أجزائه .

وهو الآن أحسن منه من خمسين سنة ، وأعداؤه أقرب إلى اليأس من أسلافهم قبل خمسين سنة .

ومرة أخرى نقول : يستحيل بناء نهضة فى بلاد العرب تتجاهل الإسلام وتتنكر لتراثه المجيد .

والتعجيل بالبصر طريقه الأوحد سرعة العودة بالأمة إلى دينها فى كل شىء .

وإخماد الأنفاس النجسة التى تلهث وهى تقذف هذا الدين بأنواع الرُّجوم ، وتبذل الجهود لتضليل الأجيال الناشئة ، وبعثرة قواها وآمالها .

فإن ارتباط الخُلُق ـ فى المجتمع العربى ـ بمبادىء الإسلام قائم ، وارتباط المثل العليا بأهداف الإسلام قائم .

وإذا شئنا بناء أمة متينة الخلق ناضرة المثل ، فعلى دعائم الإسلام وحده يجب البناء ، وإلى غايات الإسلام وحده يجب التوجيه .

إن الأشخاص الذين حاولوا السير بأمتنا فى طريق غير الإسلام ، كانوا أشبه بالسابح ضد التيار ، أو بمن يرتب الأشياء عكس امتدادها الطبيعى .

وكانت النتائج التى حصلوا عليها هى التى يحصل عليها من يحاول إلباس العملاق رداء طفل ..

أو التى يحصل عليها إنسان مريض يتولى علاجه طبيب بيطرى ..

إن هؤلاء الأشخاص لم يفعلوا شيئاً أكثر من إحداث بلبلة فى مشاعر الأمة وأفكارها .

ذلك أن أمتنا لا تستجيب إلا لدعاة الله .

صيحة خافتة لواحد من رجالات الإسلام تلتف حولها الجماهير ، وتصل إلى أعماق الضمائر .

---

(١) الأوضار : الأدران والأوساخ .

صيحة عالية لواحد من أعداء الإسلام تنقلها الصحف والإذاعات وتضاعف المدى الذى تتردد فيه ، ينصرف الناس عنها ، وقد يستجيب لها نفر فاتر الهمة ، سقيم الوجدان .

* * *

لماذا ؟ لأن العوض الذى ينظر الناس إليه وهم يساومون على ترك دينهم لا يساوى فى نظرهم شيئاً ، إن لم يكن جديراً بالاحتقار الشديد .

أيدعون الإسلام للشيوعية ، أو للوجودية ؟

إن الإيمان بالله أحب إليهم ، وأدنى إلى فطرتهم .

أيَدعُونَ التوحيد إلى التثليث ؟

إن عقولهم وقلوبهم توافقت على اليقين فى إله واحد لا شريك له ، لا ولد له ولا صاحبة :

« أَأَرْبابٌ مُتفرِّقُون خَيْر أَمِ اللهُ الوَاحِد القَهَّار »[1] ؟

ايدعُونَ العفاف للعُهْر ، والعدالة للظلم ، والاستقامة للانحراف ؟

إن المدنية الوافدة تمثل دائماً الجانب الأخسر ، من ناحية السلوك الفردى والاتجاه العالمى .

فكيف يترك الناس الإسلام الأثير لديهم إلى غير شىء ؟

يجب أن نستعد لبناء حضارتنا من جديد ، على دعائمنا العتيدة ، ووَفْق أهدافنا وحدها .

فى ظل الإسلام الذى أكرمنا الله به أولاً ، ومسكنا بأصوله إلى يوم الناس هذا .

---

(١) يوسف آية : ٣٩ .